أمين أرسلان

مذكرات

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة على بن صالح الرقمية

أمين أرسلان

مذكرات

مذكرات

1934

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

كلمة تمهيدية

جرت العادة المألوفة بين الأمم المتمدنة ألا يجوز لسياسي نشر ما عرفه من خفايا الأمور في إبَّان وظيفته وإباحته إلا بعد مُضِي خمسٍ وعشرين سنة على الأقل من تاريخ حدوثها. ولا تسمح الوزارات الخارجية بالاطِّلاع على التقارير السِّرية المحفوظة في خزائنها، إلا بعد تَصرُّم خمسين سنة على وفاة محررها. هذا هو السبب الذي من أجله تربَّصتُ إلى هذا اليوم لنشر بعض الحوادث السياسية التي مثلتُ بها دورًا، أو وقفتُ على خفاياها طيلة السبع عشرة سنة التي تولجتُ في أثنائها القنصليات الأربع الكبيرة؛ وهي بوردو، وباريس، وبروكسل، وبونس إيرس.

هذا وقد شاءت الأقدار أن يكون إنشاء هذه القنصليات ما عدا قنصلية باريس من نصيبي. ولا يغرب عن الذهن ما يجده المرء عند مفتتح الأعمال الخطيرة من المشاق والعراقيل والمعضلات. ومن المعلوم أيضًا أن مهمة القناصل اقتصاديةٌ أكثر منها سياسية، أما أنا فكان حظِّي منها أن تكون مهمتي سياسية أكثر منها اقتصادية، مع أني لم أكن قط ميَّالًا إلى هذا السلك. فإن ما تلقنته في دار العلوم السياسية في أثناء إقامتي الطويلة بباريس، وما درسته من تواريخ الساسة والسياسة جعلاني أدرك أنني لست من أربابها؛ إذ يترتب على السياسي أن يكون ذا أخلاقٍ وسجايا خاصة. فإذا كان حاد المزاج مثلًا أو عديم الصبر والأناة أو سريع التأثر فلا يصلح قط لتلك المهنة.

يروى عن البرنس دي تالايرين الذي كان وزير خارجية نابوليون الأول، والذي يُضرَب المثل بحنكته ودهائه أنه إذا ضربه أحد في قفاه، فلا يختلج له سُرٌّ من أسارير وجهه. وعلى السياسي أن يُبدي كثيرًا عكس ما يُكمن ويعتقد، وأن يتظاهر بجهله ما يعرف ومعرفته ما يجهل.

ويحق له أن يكذب لخدمة وطنه وحكومته. وليس ذلك بمستغرب؛ إذ لا أزال أذكر، عندما كنت طالبًا بكلية اليسوعيين في بيروت، أن أستاذًا في الفلسفة شرح لنا في أحد الأيام ما يسمُّونه «الكذب التقي»، وهو أنه يَحلُّ للمرء أن يكذب إذا كان ينجُم عن كذبه خيرٌ. والداهية «بسمارك» قد افتخر بتزويره ما يسمونه «برقية أيمس» التي كانت سببًا لشهر الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا.

وإلى القارئ تفصيل الحادثة، مأخوذة بحروفها من مفكِّرات «بسمارك» نفسه. قال بعد أن ذكر كدَرَه العظيم من تساهل مليكه «غليوم الأول» نحو سفير فرنسا:

> عزمت على الاستقالة من منصبي، فدعوت إلى تناول الطعام في منزلي، المارشال «مولتك» (قائد الجيوش البروسية وقتئذٍ)، ووزير الحرب الجنرال «روون». وبينما نحن على الطعام جاءني ساعٍ بيده برقيةٌ مكتوبة بالأرقام، يوقِّعها مستشار الملك الخاص في أيمس (حيث كان يستحم) فأمرتُ بحلها سريعًا. ولما أتاني بها قرأتها على مسامع ضيفيَّ، فعَلَتْ على وجهَيْهما ملامحُ الكآبة من الضعف الذي أبداه الملك أمام سفير فرنسا، وقد تجاوز الحد في قحته، وانقطعنا عن الطعام والشراب. أما أنا فاستعَدْتُ قراءة تلك الرسالة مرارًا، وكان الملك

غليوم قد أذن لي بنشرها، فأخذت حينئذ قلمًا وحذفت منها بعض الجمل فانقلب معناها انقلابًا تامًّا، ثم التفتُّ إلى المارشال «مولتك»، وألقيت عليه أسئلةً مختلفة تتعلق بجيوشنا ومهماتنا وعاقبة الحرب، أو هل الأجدر بنا التربص قليلًا ريثما نكمل استعداداتنا لها؟ فأجابني للحال: إذا كان لا مندوحة من الحرب؛ فالأولى بنا السرعة في شهرها؛ وإلا فكل مماطلة تجرُّ علينا أخطارًا. فقرأتُ عليهما الرسالة فأبرقتْ أسارير وجهَيْهما، وقالا: قد تغيرت نغمتها الآن. فقلت: ستصل هذه الرسالة إلى باريس قبل منتصف الليل، وسيكون تأثيرها على الثور الفرنساوي تأثير الراية الحمراء. ونجاحنا السياسي منوطٌ بشَهْر الحرب علينا؛ إذ يهمنا قبل كل شيءٍ أن تكون فرنسا البادئة بإعلان الحرب، وأن نكون نحن مدافعين. فسرَّ المارشال «مولتك» بذلك سرورًا عظيمًا، ثم أرسل نظره إلى السماء وصاح: «إذا قُدِّر لي الحياة؛ كي أتمكن من قيادة جيوشنا في هذه الحرب، فإلى جهنم النار هذه العظام.» وقرَع صَدرَه بكلتا يديه.

ولا يخفى أن التزوير صنيع مكروه تقتصُّ من مرتكبه العدالة، ومع ذلك، كما رأى القارئ، فقد كان «بسمارك» فخورًا بتزويره، ولم أسمع عن أحد أن انتَقَد أو جرَّم هذا الارتكاب المعيب. أما أنا فإنني من رأي السياسي الإنكليزي «وليم باتل» القائل: «إن الحقيقة وحدها يجب أن تكون دعامة السياسة.» ولهذا قد اتخذتها قاعدةً لي في جميع المشاكل التي أُلقي على عاتقي حلُّها — كما سيرى القارئ في حينه — ولحسن الحظ قد تكلَّلت كلها بالنجاح.

[1] ذكر الأستاذ هومبرتو دي كمبوس عضو المجمع العلمي البرازيلي قصة هامة حول موضوع السياسة والصفات التي يجب أن يتحلى بها المشتغل بالسياسة، قال: كان رجل ذا مكانة عالية في العالم التجاري وصاحب رأسمال كبير ودائرة عظيمة الاتساع. وبينما كان جالسًا في أحد الأيام في مكتبه أخذ يفكر بأحد أصدقائه مدهوشًا من نفوذه الواسع بين الناس، فنسب ذلك إلى تدخله في الشئون السياسية، فاعتزم أن ينخرط في ذات السلك. ورأى أن انتخابه نائبًا عن إحدى المقاطعات من الأمور السهلة لأسباب شتى؛ منها أنه غني ومصلح وكريم، فضلًا عن أن الشرف عنده كان في الدرجة الأولى. ثم نهض وسار رأسًا إلى دار زعيم سياسي لحزب الجمهوريين، وفاتحه بعزمه وأكد له أنه سيُرشِّح نفسه نائبًا عن إحدى المقاطعات، فأجابه الزعيم أن لا بأس بالأمر ما دام في نفسه نزعة في السياسة. ولكن عليه كسياسي أن يكون طويل الأناة، كثير الجلَد، يتحمل أقوال الخصوم بصدر رحب وثَغْر باسِم. ومضى الزعيم في حديثه وهو يفتش في محفظة أوراقه إلى أن قال: وأنا لا أشك في أن لديك وثائق تدحض أقوال خصومك المجانين الذين يتناولون حكايتك مع تلك الأرملة وأولادها!

وما إن سمع التاجر الكبير هذه التهمة، حتى وقف وقال، والحدة بادية عليه: إن التهمة كاذبة من أصلها، وإنه رجل شريف لم يختلس مال أحد. وحبذا لو عرف المفتري ليريه عاقبة الاختلاق.

فسكَّن بالَه الزعيم السياسي، وقال له: صبرًا يا عزيزي، هل تصرعك الحدة إلى هذا الحد وأنت تطلب السياسة ومنازعها ومراميها؟ ففطن الرجل إلى حقيقة حاله واعتذر.

ولكن الزعيم قال له: حسن إذا كان ثائرك ثار لحادث بسيط من هذا النوع؛ فماذا تقول لو اطلعت على وثائق بين والدتك وشخص مجهول؟

فتغيرت ملامح الرجل إذ ذاك، وعلت وجهَه صفرة الموت، وقال: إن هذا منتهى السفالة واللؤم. فأي نذل قال هذا القول؟! وهم بالانصراف مزمجرًا. وإذا بالسياسي يقول له: متى انتُخبت نائبًا وسياسيًّا؛ فستسمع العجائب من المفتريات والأكاذيب. سيقولون عن امرأتك وعلاقتها بالصيرفي فلان! فصاح التاجر: ويل للكذبة والمنافقين؛ إنهم سيجعلون مني قاتلًا.

فوقف الزعيم السياسي وهدأ ساكنه، وأبلغه أن ما سمعه هو اختلاق منه ذَكَره ليمتحن قدر صبره، ونصح له أن يبتعد عن السياسة؛ لكيلا يصبح قاتلًا.

* * *

مضى على الحادث عشرة أعوام، ورجع التاجر إلى زيارة الزعيم السياسي صديقه فرغب هذا في أن يمتحن طول أناة صديقه، وعما إذا كانت تغيرت أخلاقه، فسأله فجأة: أصحيح ما شاع أمس أن أختك هربت وسائق السيارة، وأن امرأتك ساعدتهما مساعدة فعالة؟

فضحك التاجر وقال للزعيم: دعهم يقولون ما يشاءون؛ فإني لا أنظر إلى هذه الترهات. فصافح الزعيم صديقه، وقال له: الآن أصبحت صالحًا للسياسة، فأهلًا بالزميل الكريم!

قطع العلائق السياسية بين فرنسا والدولة العثمانية

في منتصف سنة ١٩٠١م، أي بعد تصرُّم ثلاث سنوات على تولي قنصلية جنرال بلجيكا، وكان جوُّ السياسة صافيًا والأحوال سائرة بانتظام، فوجئنا في السابع والعشرين من شهر آب من تلك السنة بنبأ كان وقعُه علينا كما قال الشاعر: «كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ منْ علِ»؛ إذ لم نكن نتوقع حدوثه، ولم تكن في أفق السياسة علامة ما تدل على قرب هبوب تلك العاصفة السياسية الهوجاء وإليك صفوة النبأ:

«طلب المسيو «كونستان» سفير فرنسا في الأستانة يومئذ جوازَ سفره، وغادر تركيا دون أن يترك متوليًا للسفارة؛ الأمر الذي يدل على قطع العلائق السياسية فقط. فاضطر بالطبع السفير العثماني في باريس «منير باشا» أن يطلب جوازه أيضًا من الحكومة الإفرنسية؛ كي يعود إلى الأستانة. وقد أفادت البرقيات أنه سيتوجه إلى مدينة «بال» في سويسرا لينتظر مرور قطار الإكسبرس أوريان.»

لم ندرك بادئ بدء السببَ الحقيقي الذي دعا إلى هذه المقاطعة الفجائية؛ إذ كان للمسيو «كونستان» سفير فرنسا دالة خاصة عند السلطان عبد الحميد، الذي كان يُغدق عليه الهدايا والعطايا — ولا يخفى أن الفرنسويين على العموم مُولعون بالهدايا — وقد كان وقع النبأ علينا، نحن مأموري السفارة

والقنصلية في بلجيكا، أعظم من بقية السفارات؛ لأن مركزنا ازداد حراجة بسبب تغيب سفيرنا فيها؛ لأن ملك بلجيكا لم يشَأْ أن يعترف به سفيرًا في بلاطه. فأصبحنا، والحالة هذه، بلا رئيس نرجع إليه (وسيرى القارئ فيما يلي تفصيل ذلك الخلاف بين السلطان عبد الحميد، وملك البلجيك). وبينا نضرب أخماسًا بأسداسٍ متشائمين من سوء العاقبة؛ إذ دخل عليَّ متولِّي سفارتنا «مفيد بك» وبيده برقية، وقال:

> وردتني هذه البرقية الرقمية الآن من سفيرنا يفيدني بها أنه قادمٌ إلينا هذا المساء متنكرًا، وسيصل في قطار نصف الليل، ويوصيني ألا أخبر أحدًا بذلك الآن.

كان بيني وبين «مفيد بك» صداقةٌ حميمة متينة، وهو متحدر من إحدى الأسر الشريفة العريقة في ألبانيا، وكان شهمًا مخلصًا أمينًا. فبعد أن تناولنا طعام المساء معًا حسب العادة، أخذنا نتجاذب أطراف الأحاديث حتى قُربِ الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين، فقصَدْنا محطة قطار الجنوب. ولمَّا دخلنا وجدنا أن أول المنتظرين كان الدوق «دورليان» ولي عهد فرنسا لسلالة البوربون، فقلت لمفيد بك: إن الآنسة فلانة من المسرح الإفرنسي الرسمي في باريس قادمةٌ في هذا القطار.» فقال: «عجبًا وكيف تعرف ذلك؟» فأجبت: «هذا هو الدوق «دورليان» ينتظر، وهو أحد عشاقها الثلاثة.»

قال: «وكيف ذلك؟» قلت: «إني أعرف الممثلة المذكورة شخصيًّا، وهي عشيقة لرئيس بلدية باريس سابقًا «ألفونس هامبر» أحد أصدقائي الحميمِّين. وفضلًا عنه فلها عاشق مليونير من كبار سماسرة البورصة يُغدق عليها

الأموال بالألوف. وخلا هذين فهذا الدوق عاشق ثالث للشرف. بنوع أن تلك الآنسة ... المحترمة قد جمَعَتْ بين النفوذ والمال والجاه. وهكذا يكون الذكاء، وإلا فلا. وبما أن الدوق منفيٌّ من فرنسا، عندما نفَتِ الحكومة الإفرنسية جميع أفراد الأسرة المالكة؛ فقد اختار إنكلترة موطنًا أو منفًى له. وكلما حنَّ إلى هذه العشيقة يتواعدان للاجتماع معًا في هذه المدينة، فيَقدَم هو من إنكلترة، وتأتي هي من باريس، فيقضيان بضعة أيام في عناق وهناء.»

وبينما نحن نتمشى جيئةً وذهابًا ننتظر القطار، قصصت على «مفيد بك» النكتة اللطيفة الآتية، التي أخبرنيها صديقي «ألفونس هامبر» نفسه. قال: «رغبت ذات يوم أن أقضي سحابة ذلك النهار متنزِّهًا مع صديقتي هذه، وإذ كنا نشاء أن نكون حرين لا يعرفنا أحد ولا نلتقي بواشٍ ينمُّ علينا؛ قررنا اختيار نزهة لا يقصدها إلا الطبقة الوسطى من الناس، وهي جزيرة روبنصن (هي جزيرة صغيرة في منتصف نهر السين الذي يخترق باريس، يقصدها العشاق من عامة الناس، ومن خصائصها شجرة قديمة ضخمة جدًّا صُنع في جذوعها مساطب خشبية ومائدة للطعام والشراب). قال: فلما وصلنا وجدنا جميع محرري جريدة الفيغارو قد اجتمعوا ليحتفلوا بعرس رفيق لهم.»

وأخيرًا لما أزفت الساعة سمعنا صفير القطار، وبعد هنيهة رأيناه ينساب كالأفعى داخلًا وكرِه، فأول من أطلَّت من حجرتها كانت الممثلة المذكورة الرشيقة القوام تتيه عجبًا ودلالًا. فتقدم الدوق مسرعًا، وأخذ يدها وقبَّلها، ثم تناول حقيبتها، وتأبَّطَتْ هي ذراعه، وخرجا معًا غير مبالين بأحد من الناس.

وأخذنا نبحث عن دولة السفير نحدِّق هنا وهناك بكل مسافر. وخرج الناس أجمعون، فلم نعثر على أثر لرئيسنا فأخذتنا الدهشة، وقدرنا أنه وصل محطة القطار متأخرًا فأضاعه. وبينا كنَّا على أهبة العودة بخُفَّي حُنين؛ وإذ

سمعنا صوتًا من داخل حجرة مظلمة، يقول بالعربية «يا أسد لبنان.» فكان السفير، وكان هكذا يخاطبني عادةً صداقةً ولطفًا منه. وكان إذا كتب لي يستهلُّ رسالته بما يلي «الأمير صاحب التدبير»، فتوجهنا إليه، فسأل: هل خرج جميع الناس؟ قلنا: نعم. فنزل، وقال: خذاني أولًا إلى مطعم؛ لأني لم أشَأ الأكل في ساعة الطعام؛ إذ لا أريد أن يعرف أحد أني جئتُ إلى هنا. فركبنا عربة وقصدنا مطعمًا واحتفظنا بغرفة خاصة فيه. وبينا كان دولته يأكل، أخذ يقصُّ علينا تاريخ ذلك الخلاف الذي أوجب المقاطعة بين الحكومتين الإفرنسية والعثمانية. وخلاصته أنه منذ ثمانٍ وعشرين سنة استدان السلطان «مراد»، لمَّا كان ولي العهد، ثمانين ألف ليرة عثمانية من صيرفي أرمني اسمه «أغوب أفندي»، دفع منها ثلاثين ألف ليرة، وبقِي خمسون ألفًا. إلا أن الصيرفي باع حقوقه قبل مماته إلى صيرفي آخر اسمه «لوراندو». وهذا بدوره باع حقوقه من رجل آخر اسمه «كوبيني» تحت حماية فرنسا، وليس من تبعتها. فهذه الخمسون ألف ليرة أصبحت اليوم ثلاثين مليونًا من الفرنكات، يطلب سفير فرنسا دفعها عدًّا ونقدًا. وقد أجاب الباب العالي أنه لا يُنكر هذا الدين، وإنما يطلب فحصه أولًا والنظر في فوائده، وأشار على السفير بمراجعة وزارة المالية.

بيد أن السفير أصرَّ على الدفع عادًّا جواب الوزارة مماطلةً. هذه هي الحجة حسب الظاهر، ولكنني أعتقد أن للسفير مآربَ أخرى، ورغب أن يخرج من الأستانة على هذه الصورة؛ أملًا أن التهديد يخيفنا.

فقلت: ألا تظن، يا صاحب الدولة أن وراء الأكَمَة ما وراءها، وأن صنيع السفير هذا هو انتقام من المسألة التي تعرفونها. فأومأ إليَّ بطرف خفي ألا أشير إلى تلك المسألة؛ لأنه لم يشأ أن يعرفها متولِّي السفارة. ثم أخذ دولته يسرد علينا ما دار بين توفيق باشا وزير خارجيتنا والمسيو «كونستان» سفير

فرنسا من المخابرات، إلى أن قال: أواه! لو أمكن نشر تلك المخابرات؛ لما شك أحد أن الذنب هو ذنبنا. فقلت: ولمَ يا حضرة السفير لا تنشر تلك المخابرات، فتُوقف الرأيَ العام على الحقيقة، ويعرف الجميع أن ما فعله السفير الإفرنسي ليس هو إلا «شانتاج» سياسي؛ اعتمادًا على قوة فرنسا وضعفنا؟ ثم أضفت: لسوء الحظ نحن، سواء كنا محقين أم مخطئين؛ فلا بدَّ لنا من دفع القيمة صاغرين. فصمتَ السفير هنيهة، ريثما أشعل لُفافته، ثم قال: الحق معك، ولكن من يتجاسر أن يأخذ على مسئوليتِهِ نشر تلك المخابرات؟ فأجبت على الفور بحدة: أنا يا صاحب الدولة، وأتعهد لك بنشرها في أية جريدة شئت مِن أكبر جرائد أوروبا؛ إذ لو كنت قد تركتُ الصحافة؛ فلا أزال عضوًا في نقابتها، وصديقًا لأصحاب كُبراها، كجريدة «التايمس» الإنكليزية التي، كما تعلمون، بدأتُ أحرر بها منذ وصولي إلى باريس، على عهد «بلوفيتز» الشهير. وتعلمون دولتكم أني كنت عضوًا في مؤتمر الصحافة الدولي، وعليه تمكَّنت من التعرُّف بأكبر أصحاب وكُتَّاب جرائد أوروبا من ألمانيَّة وروسيَّة أو نمساويَّة. فضحك السفير، وقال: لا أستغرب ذلك منك، بعد برقيتك إلى «تحسين باشا» (باشكاتب السلطان عبد الحميد يومئذٍ)؛ إذ اتفق أنني كنت موجودًا في يلديز يوم وصول برقيتك، وقد أطلعني عليها قائلًا: «بودالي.» يعني: مجنون هو.

وإلى القارئ قصة تلك البرقية:

اتصل بي في أحد الأيام أن «تحسين باشا» أجاب ذات يوم متوظفًا طالبَ برواتبه المتأخرة، أن تلك الرواتب ليست إلا حسنة من حسنات الحضرة الشاهانية. فأخذ الهياج منِّي مأخذه للاحتقار الذي وُجِّه لمتوظفي الدولة، وأبرقت إليه ما يأتي:

اتصل بي أن دولتكم قد صرَّحتم بأن معاشاتنا هي من نِعَم الحضرة الشاهانية وإحساناتها. أما أنا؛ فلا أحسب أن معاشي هو إحسان من أحدٍ؛ بل هو حق لي مقابل خدماتي المخلصة للدولة والأمة.

وأمضتها صريحًا: «أمين أرسلان، بروكسل باش شهبندري.»

فليتصور القارئ وَقْعَ تلك البرقية من قنصل في ذلك العهد الحميدي حيث كان الوزراء والسفراء والمشيرون يرتجفون وَجَلًا من كلمة يتلفظون بها. وكان جميع زملائي ينتظرون الساعة إثر الساعة الأوامرَ بعزلي من وظيفتي. فلما مضت الأيام وتوالت الأسابيع والشهور، ولم يحدث شيءٌ، ساء فَأْلُهم وخابَتْ آمالُهم!

وبعد أن أعاد السفير هذه القصة على سمع «مفيد بك»؛ قال: حقًّا لا يوجد من يُقدم على هذه الجسارة إلَّاك، ولكن من ذا الذي يأخذ على نفسه مسئولية الترخيص بنشر هذه المخابرات؟ وكنَّا قد انتهينا من الطعام، فنهض قائلًا وذاكرًا المثل الإفرنسي: الليل يجلب الأفكار، سنرى غدًا.

فدعوته لتناول طعام الظهر في القنصلية، فقبل شاكرًا.

وفي صباح اليوم الثاني رأيته قد جاء باكرًا، وبعد أن أخذ قسطًا من الراحة قال: قد فكَّرت أمس مليًّا فيما أشرتَ به، فوجدتك مصيبًا؛ إذ يجب أن يعرف الرأي العام أن الحق بجانبنا، وأنه إذا أُكرهنا على الدفع فما هو إلا إذعان للقوة، وليس للحق والعدالة. وعليه سأخبر «مفيد بك» أنه عندما تنشر الصحف خبر وصولي الأستانة، أن يرسل لي برقية مكتوبة بالأرقام طبعًا، يقول فيها إنك تتعهد بنشر تلك المخابرات.

وبما أن جميع البرقيات التي تُرسل إلى الأستانة تمرُّ أولًا على «يلديز» وتُعرض على السلطان؛ فبناءً على ذلك سيطلع جلالته عليها قبل وصولها ليَدي، وأنا بعد ذلك أعرضها على جلالته كالعادة. فإذا أمر هو بالترخيص؛ أبرق إليَّ مفيد بك حالًا؛ وإلا فصمتًا وصبرًا. وأضاف باسمًا بالعربية، وإنما بلهجة تركية: إن الله مع الصابرين، يا مير صاحب التدبير. وبعد هنيهة جاء «مفيد بك»، فأعطاه دولته التعليمات اللازمة بهذا الخصوص. ولما جلسنا على المائدة أخذ يحدثنا بأمور كثيرة، فإنه كان عذب الحديث لطيف العشرة، متوقِّد الذكاء محبًّا للمداعبة مع مَن يثق به.

ولما دقت الساعة الثانية، وكانت ساعة افتتاح دوائر قنصليتي، نهض قائلًا: لا أريد أن أؤخر عليك أشغالك، وإنما بعد الفراغ تعالَ إلى السفارة، ثم ودَّعني وانصرف، يتبعه «مفيد بك» متولي السفارة.

وعند الساعة الخامسة توجهت إلى السفارة، فوجدت السفير و«مفيد بك» مهتمين بكتابة برقية بالأرقام. فجلست على جانب، ولبثت صامتًا إلى أن طلب السفير من «مفيد بك» أن يُعيد قراءة ما رقمه، ففهمت من سماع تلاوتها أن تلك البرقية هي موجَّهة إلى «نابي بك» مستشار سفارتنا في باريس (هذا هو الذي وقَّع معاهدة رومية بعد حرب طرابلس الغرب، وكان رُقِّي إلى رتبة سفير في رومية) والبرقية هذه كانت بالتركية؛ ولهذا فإن كتابتها بالأرقام هي أصعب منها بالإفرنسية وأطول. فاستأذنت السفير السماح لي بإبداء ملاحظة، فأذن فقلت: فهمت من مآل هذه البرقية أنها موجهة إلى «نابي بك». قال: هو كذلك. قلت: إنها تحتاج ساعة على الأقل للفراغ من ترقيمها. أجاب: على الأقل. قلت: لو فرضنا أن إدارة التلغراف هنا أرسلتها بعجل؛ فيلزم لها ساعتان؛ كي تصل إلى باريس. وها الآن الساعة السادسة، وعليه فستصل إلى باريس الساعة الثامنة. وإذا قدَّرنا ساعتين؛ كي تصل

البرقية إلى «نابي بك»؛ فتكون عندئذ الساعة العاشرة. ولما كان يلزم ساعة لحل أرقامها؛ فلا يتسنَّى إذن لنابي بك الوقوف على مآلها إلا عند منتصفِ الليل. قال: هو كذلك، ولكن ما الحيلة؟! قلت: لم لا تكلمونه دولتكم بالتليفون؟ ففي ثلاث دقائق يمكن لدولتكم أن تقولوا له ما تريدون، وتحصلون على الجواب أيضًا، والاستعلام منه عما تشاءون. فضحك، وأجاب مداعبًا: ولم يا حضرة القنصل الجنرال صبرتَ حتى الساعة؛ كي تبوح لنا بهذه الحيلة؟ ثم قال: هيا عاجلًا، واطلب نابي بك بالتلفون. فقلت: لا أرى من الصواب مكالمته من سفارتنا هنا؛ إذ سيُعرف حالًا في باريس أن سفارة تركيا تطلب مكالمة سفارة باريس، ولا شك أن القوم عالمون أن دولتكم هنا من الجاسوس الذي يترقَّبكم، ويتتبع أثركم خطوة خطوة. فالأولى أن نذهب إلى إدارة التليفون الرئيسية (السنترال)، وهناك نطلب نمرة السفارة فقط. فنهض قائلًا: هل عربتك في الباب؟ قلت: نعم. قال: هيا بنا حالًا. فتوجهنا إلى إدارة التليفون، ولما وصلناها سألته: ما هو رقم تلفون السفارة؟ فبُهت، وقال بالتركية: والله بيلميوروم. أي: والله لا أعلم. فلم أتمالك من الضحك وقلت: وكيف دولتكم تطلبون السفارة في باريس؟ قال: لم أطلبها قط رأسًا، فضلًا عن أن هنالك يكفي أن يقول المتكلم أريد سفارة تركيا، فيعطونه إياها. فأخذت حينئذ دليل باريس، وقيدت نمرة السفارة وأعطيتها إلى المأمور، فقيدها للحال، ثم قال: إن نمرتكم هي الثالثة؛ أي: يجب انتظار تكلم ثلاثة أشخاص قبلنا، أو عبارة عن تسع دقائق؛ لأن المخابرة هي ثلاث دقائق. فأخذنا نتمشى في فناء الإدارة ذهابًا وإيابًا إلى أن سمعت المأمور يصيح: قد جاء دورك في الحجرة الأولى. فدخلتها وسمعت خادم السفير يردد القول: من المتكلم؟ فعرفته من لهجته؛ إذ كان من جنوبي فرنسا، وقلت له: عَجِّل يا فرنسوي، وأعطني مع نابي بك، لا تضيع الوقت بالسؤال عَجِّل. وبالحال

سمعت صوت نابي بك، فخرجت للحال وقلت للسفير: هذا نابي بك. فدخل الحجرة بعد أن خرجت، وقد سمعته يقول: كتم جانم؛ يعني: أنا هو. فخفت أن يضيع الوقت، وتدري المراقبة بذلك. ففتحت الباب وقلت: عَجِّل دولتكم بالكلام، فسيفهم مرادك، وهكذا كان. ولم يتمكن السفير من التكلم إلا مدة دقيقة ونصف؛ إذ انقطعت المواصلة بالحال، ولم يعد بالإمكان فهم شيء. فخرج السفير باشا، وقال: لا بأس قد قلت ما شئت وفهمت ما أريد. والظاهر أنه عندما عرض المتوظِّفون في إدارة تلفون باريس أن المكالمة بالتركية، ولم يفهموها؛ إذ كان تلفون سفارتنا تحت المراقبة قطعوا المواصلة حالًا.

وفي اليوم الثالث ركب دولته القطار قاصدًا الأستانة، وأصبحنا ننتظر بفارغ الصبر خبر وصوله، وتفاصيل ماجريات تلك الأزمة.

وفي اليوم الثاني من وصوله أبرق له «مفيد بك» بما اتفق عليه، ومضى أسبوع دون أن أتسلم جوابًا عليها. وفي صباح يوم دخل عليَّ مفيد بك وقال: وصلتني الساعة البرقية التي تنتظرها، ولكن ليست كما ترغب وتريد. فقلت: وكيف ذلك؟ فأجاب: إليكها. ودفعها إليَّ فوجدت أن البرقية ممضية من وزير خارجيتنا توفيق باشا، ومن منير باشا سفيرنا، يقولان فيها إنِّي مفوضٌ بالاطلاع على المخابرة. يعني أن الوزيرين يُلقيان عليَّ وحدي مسئولية نشرها؛ حيث يقولان صريحًا إني مفوضٌ بالاطلاع على المخابرة فقط. فبعد أن فرغت من تلاوة تلك البرقية. قال لي مفيد بك: أرجوك أن تفكر مليًّا بما ستفعل، وبما أنت عازمٌ عليه؛ لأنه إذا ساءت النتيجة؛ فتكون عاقبتها عليك وحدك. فضحكت وقلت: هل رأيت مثل هذه الجبانة والخوف؟ سفير ووزير يمضيان برقية دون أن يتجاسرا بالترخيص لي بنشرها أو عدمه! يعني أكون وحدي المسئول، ثم أضفت: لا بأس؛ فإنِّي عازمٌ على المخاطرة. فهل من وراء ذلك العمل غير العزل؟! فعلى الدنيا والوظيفة السلام.

ولما كانت المخابرات محفوظةً في سفارتنا في باريس، ركبت صباح اليوم الثاني قطار باريس لتسلمها. وعند وصولي توجهت حالًا إلى السفارة لمقابلة نابي بك، فعرتني الدهشة لمَّا أخبرني أنه حال وصول برقية السفير إليه مرخصًا لي بالاطلاع على المخابرات؛ أسرع بإرسالها إليَّ ببريد المساء نفسه. فقلت: سامحك الله يا بيكي العزيز، هل سها عن بالك أن جميع مواصلاتنا وحركاتنا ومخابراتنا هي تحت المراقبة من لدن الحكومة الإفرنسية؟ فلا شك أن الغرفة السرية قبل إرسال رسالتك إليَّ ستفتحها، وتطَّلع على ما فيها. فأجاب: صدقت ولكن لا يوجد في الغلاف إلا صور المخابرات فقط.

وهكذا رجعت بعد ساعتين إلى بروكسل بنوع أني قضيت النهار بطوله في القطار ذهابًا وإيابًا بلا جدوى. وكما ظننت أن ذلك الغلاف لم يصل إلا في اليوم الثالث.

لا إخالني محتاجًا أن أصف إلى القارئ اللهفة التي فتحت بها ذلك الغلاف، والدقة التي تصفحت بها تلك المخابرات التي دارت بين سفير فرنسا ووزير خارجتنا. وقد تحقق لي أن سفيرنا تكلَّم صدقًا وأن سرعة قطع العلائق يقصد فيها أيضًا أمورًا أخرى. ثم أخذت أسائل نفسي وأعمل الفكر في أيٍّ أوفق لمصلحتنا الصمت أم النشر؟ وبعد إنعام الفكرة ألفيت ألا مانع يحول في سبيل نشرها، بل بالعكس يجب إثارة الرأي العام، ولا سيما الإفرنسي بحقيقة الواقع. وكنت على ثقة من أن الأحزاب المعارضة للحكومة وخصوصًا الاشتراكيين سيغتنمون الفرصة لمقاومة الوزارة والوقوف بوجهها إذا حدثتْ مناقشة في المجلس.

بقيَتْ عليَّ معضلة نشرها وتقرير أية جريدة هي أوفق سياسةً لمصلحتنا؛ لأن الخطأ بذلك يكون وبيلًا علينا، وتضيع النتيجة المرغوب فيها. فافتكرت إن أعطيتها لجريدة التايمس الإنكليزية لا يؤثر نشرها على الرأي العام الإفرنسي، ولئن كانت تعد أهم جريدة في العالم، وذلك لعداء الدولتين.

وهكذا القول إذا نشرتها في الجرائد الألمانية، أو في الصحف الروسية. وبعد أن أعملت الفكرة طويلًا وجدت أن جريدة الإندبندس بلج، التي هي أكبر جرائد بلجيكا وأهمها وذات مقام عظيم في الدوائر السياسية، هي أنسب الجرائد؛ سيما لأن بلجيكا دولة متحايدة. وإنما العقدة كانت في أن تلك الجريدة وإن كانت متحايدة؛ فهي إفرنسية الميل.

واتفق لحسن الطالع أن رئيس تحريرها كان صديقًا لي وهو شابٌّ في مقتبل العمر كثير الاجتهاد والذكاء، وعندما رُقِّي إلى رئاسة تحرير الجريدة خَشِي الكثيرون ألا يكون جديرًا بالمركز الذي رُقِّيَ إليه نظرًا لأهميته. أما هو فكان كلما حدثَ حدثٌ سياسيٌّ خطير عسر عليه فهمه يلتجئ إليَّ، فكنت أساعده على قدر الطاقة وأعطيه التعليمات اللازمة؛ حتى إنني مرارًا عديدة كنت أستوضح زملائي السفراء الأجانب إذا تعذَّر عليَّ أيضًا فهم حدث سياسي خطير في بلادهم وأفيده عنه. ولهذا لم يمضِ شهران على تسلمه مركزه حتى تحقق الجميع أهليته وجدارته.

بقي عليَّ كيفية إقناعه بوجوب نشر تلك المخابرات في جريدته ومنافعها له ولها. ففي اليوم الثاني كلمته بالتلفون في بيته الخاص، قائلًا له: عندي أمور مهمة لإطلاعه عليها. فقال: ما هي؟ قلت: لا يمكن الإفصاح عنها بالتليفون، فإذا شئت تفضل إلى القنصلية. فلم تمضِ ربع ساعة حتى رأيته ينزل من عربته ويهرول إليَّ سائلًا بتلهف: ما هي تلك الأمور المهمة؟

فدعوته كي يصعد إلى مكتبي الخاص في الطابق الثاني، وبعد أن أمرت له بالقهوة التركية، وضعت أمام عينيه غلاف السفارة الكبير الحاوي المخابرات، وقلت له: هل تدري ما يتضمن هذا الغلاف؟ فهزَّ رأسه سلبًا. فقلت: هذه هي جميع المخابرات السياسية التي دارت بين سفير فرنسا ووزير خارجيتنا بخصوص الخلاف القائم بيننا، والذي أدى إلى قطع العلائق. فحدق بنظره إلى الغلاف مادًّا يده للاطلاع على ما يحتوي. فقلت: لا، يا صديقي العزيز، لا يمكنني السماح لك بالاطلاع عليها قبل أن تتعهد بنشرها في جريدتك. فأجاب: كيف تريد أن أتعهد بشيء قبل أن أعرفه؟ فأجبت: إنِّي أعيد لك القول: هي نسخ المخابرات السياسية، وأنت تعلم أنه لا يمكن وجود شيء منها، لا يجوز نشره.

فقال: ولكن ماذا يمنع من مطالعتها؟ فأجبت: يمنع أنك ستفهم أمورًا كثيرة لا يمكنك معرفتها إلا بعد مطالعتها، فيسهل عليك الإشارة إليها بمقالة افتتاحية، ويتعذر عليَّ بعد ذلك نشرها في التايمس مثلًا؛ إذ تعلم أني كنت من مراسليها. وعليه إذا سبقت ونشرت شيئًا منها؛ فلا تقبل الجرائد الأخرى نشر خبر سبقها غيرها إلى نشره. فصمت مقتنعًا بصحة قولي ثم قال: أريد أن أستشير مدير الجريدة قبلًا. فدفعت إليه التلفون، وقلت: إليكَه. فأخذه وبدأ يشرح للمدير ما دار بيننا من الحديث، وسمعت المدير يقول له: لا بأس، تعهَّدْ له بنشرها. فتناولها وشرع يقرؤها بتلهُّف. وبعد أن فرغ منها كرَّر تشكراته لي؛ لأن سبقه في نشر تلك الوثائق السياسية سيزيد أهميتَه وأهمية الجريدة. وبالحال أبرقت إلى السفير مصرحًا أن جريدة الإندباندس بلج ستنشر غدًا الرسائل.

وصدرت في اليوم الثاني الجريدة المذكورة بمقالة طويلة ممضية من صديقي رئيس التحرير، ولم يذكر طبعًا أنِّي أنا الذي أعطيته تلك المخابرات،

وإنما عثر عليها صدفةً. ثم حررت بالحال إلى شركة أرغوس في باريس؛ كي ترسل لي جميع ما يُنشر في جرائد أوروبا بخصوص نشر تلك المخابرات.

وفي اليوم الثالث بدأت الشركة المذكورة ترسل لي تباعًا قصاصات الجرائد بجميع اللغات، وقد بلغ عددها مائة وخمسين ونيفًا، فأرسلتها إلى الأستانة باسم السفير.

وعلى الرغم من أن الجريدة لم تشر إليَّ مطلقًا؛ فقد تمكنت الحكومة الإفرنسية من معرفة أني أنا الدافع تلك الرسائل إلى الجريدة البلجيكية، كما تمكن دون عناء كبير مأمور الشيفرة الإفرنسية (أي البرقيات التي تكتب بالأرقام) من حل برقياتي التي كانت تمر بباريس.

ولما صعب عليَّ الوقوف على حقيقة الحال، ومعرفة وقع الرسائل في النوادي الباريسية؛ فقد وطدت النفس أن أذهب إليها ثقةً مني بأني سأطلع على أمور مهمة؛ نظرًا لما كان لي فيها من الأصدقاء والمعارف، وخصوصًا من زملائي أرباب الصحافة. فقصدتها مساء يوم وفي صباح اليوم التالي دعوت لتناول الطعام معي المسيو ألفونس هامبر، من أعضاء مجلس النواب النافذي الكلمة، ومن أهم صحافيي فرنسا، وهو الذي استقبل باسم باريس قيصر روسيا نقولا الثاني لما زارها؛ إذ كان يومئذ رئيس بلديتها. ولما كان هو أحد ممثلي الصحافة الإفرنسية في المؤتمر الدولي، وكنت أنا ممثل الصحافة العربية؛ فقد تمكنت أواصر الصداقة بيننا، وكان أحدنا لا يفارق الآخر؛ إذ فضلًا عن أنه كان حاد الذكاء فصيح الكلام، كان لطيف المعاشرة كثير المداعبة.

لقد كان مدار حديثنا طبعًا خلافنا مع فرنسا وقطع علائقنا السياسية، فأفهمني بداهةً عن وقع نشر الرسائل، وأن مركز الوزارة أضحى بسببها حرجًا؛ إذ لا بد من مناقشة حادةٍ في مجلس النواب؛ حيث قد اقتنعوا بعد مطالعتها بأن المسيو كونستان قد أجبر الحكومة على مجاراته في سياسته الهوجاء، ورأت الحكومة أنه لا يمكن تسفيه رأيه بعد هذا، أو الرجوع إلى الوراء مهما كلفت المسألة. فسألته: وهل تعتقد بسقوط الوزارة؟ أجاب: لا، ولو كنا مغايرين سياستها غير الرشيدة؛ فلا نستطيع الآن إلا معاضدتها، فضلًا عن أن قيصر روسيا قادمٌ إلينا بزيارة ثانية، فلا يليق استقباله بأزمة وزارية، وإنما يمكنني أن أؤكد لك أن الوزارة قد خسرت كثيرًا من مؤيديها، وظفرها سيكون بأكثرية قليلة.

ومما يحسن ذكره أن صديقي المذكور كان قد عرَّفني بمدام ستانهيل عشيقة المسيو فليكس فور رئيس الجمهورية سابقًا، وقد فاجأته المنية وهو بين ذراعيها.

لقد صدق مثلنا العربي القائل: «رب صدفة خير من ميعاد»، وقول شاعرنا «ويأتيك بالأخبار من لم تزود»؛ إذ جرت لي العادة أنه كلما قصدت باريس ولو يومًا واحدًا أن أزور حي اللاتين فيها، وهو الذي يقطنه الآلاف من طلبة الكليات والمدارس الكثيرة، وقد سكنت طيلة إقامتي في ذلك الحي بشارع سان جرمان نمرة ٤٦، وكنت قد اكتريت طابقًا مع اثنين من مواطني ورفيقي في مدرسة الحكمة، المرحومين الدكتور منصور جعجع وشكري إده. وهكذا تمكنت من درس آداب اللغة الإفرنسية طيلة ثلاث سنوات على الأستاذ المشهور «إميل دشانل» (والد رئيس الجمهورية الذي مات مختلًّا)، وعلم التاريخ على المؤرخ الطائر الصيت ساني بوص، وعلم السياسة على أشهر عالم في هذا الفن إميل سورل. فذهبت في ذلك المساء لمناولة العشاء

في المطعم الذي طالما أكلت به طيلة إقامتي الطويلة في باريس، وساعدني الحظ بأن التقيت بصحافي عرفته أيضًا في مؤتمر الصحافة الدولي، وكان ذا صلة شديدة بوزارة الخارجية. فقلت في نفسي: هذه ضالتي المنشودة ولا بد أن هذا يعلمني بأمور كثيرة. فبعد التحية دعوته إلى تناول طعام الظهر في اليوم الثاني. وإذ كنت أعلم أنه يحب المأكولات الأنيقة الإفرنسية والنبيذ المعتق؛ سألته أن يدلني على مطعم شهير بهذين الشيئين. فأشار عليَّ بمطعم على شاطئ «السين» الشمالي.

وهكذا التقينا في ظهر اليوم الثاني في ذلك المطعم الذي لا يقصده إلا الخبيرون الأكفاء. فبعد أن أوصينا على ما اشتهاه من الأكل والنبيذ، شرعنا نتجاذب أطراف الأحاديث، والحديث ذو شجون. ولما دب دبيب الخمرة في رأس الزميل، فاتحته بأمر قضيتنا وخلافنا فانطلق لسانه من عقاله، وأخذ يسرد عليَّ ما يعرفه من المسألة. وهكذا فهمت أن الحكومة الإفرنسية عازمة أن ترسل أسطولًا إلى أحد موانئ السلطنة.

وبعد الفراغ من الطعام قصدت سفارتنا لمقابلة مستشارنا نابي بك، فوجدته غير عالم بشيء مما وقفت عليه. وسبب ذلك أن عشراءه لم يكونوا إلا زملاءه السياسيين، وهؤلاء قلَّما يمكن الاعتماد على إخلاصهم، وقفلت في اليوم الثالث مزودًا بالأخبار، وبالحال حررت إلى منير باشا التحرير الآتي تعريبه:

عزيزي صاحب الدولة

أرسلت منذ أسبوعين لدولتكم قصاصات الجرائد الإفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية التي نقلت في أعمدتها الرسائل، وإنما

لم أتمكن من إرسال قصاصات الجرائد الروسية، فهي واصلة طيه، هذا فضلًا عن أن سفراءنا دون ريب قد أرسلوا تلك النسخ عينها إلى وزارتنا مع معلوماتهم عن وقعها في الدوائر السياسية حيث يقيمون.

ورغبةً مني في معرفة ما كان وقعها في باريس خلاف ما يمكن لنابي بك أن يعرفه من الدوائر السياسية، قصدتها منذ أربعة أيام، وتمكنت من مقابلة بعض الأصدقاء الواقفين على ماجريات الحوادث. منهم نائب صديق حميم وذو نفوذ كبير وصحافي أيضًا، ففهمت منه أمورًا كثيرة، وأستميح من دولتكم الإذن بألا أصرِّح بأسمائهم هنا؛ حيث يخشى على تحاريرنا من الضياع أو السرقة.

والذي فهمته من النائب المذكور أن نشر تلك المخابرات على صفحات جرائد العالم قد أساء الحكومة الفرنسية جدًّا؛ إذ قد كشف النقاب عن حقيقة الحال. وقد اقتنع النواب أن الوزارة في هذه القضية هي مسيرة غير مخيرة، وأن القضية مقصودة من المسيو كونستان. حتى إن بعضهم يتهمه أن سيكون له نصيبٌ وافر من الملايين التي سنضطر إلى دفعها آجلًا أو عاجلًا. وعليه إن الوزارة رغمًا من نفوذ رئيسها فقد خسرت كثيرين من مؤيديها، وأن لا بد من حدوث مناقشة في مجلس النواب ستكون عنيفة جدًّا، خصوصًا من الاشتراكيين. أعرف شخصيًّا المسيو جوريس (الاشتراكي المشهور وزعيم الحزب في فرنسا)؛ بيد أني لم أشأ مقابلة؛ لئلا يظن أني سعيت بالفساد بين النواب أخصام الوزارة والحكومة، ولئن كان شرعًا لا يحق العتب عليَّ بذلك. من المستبعد سقوط الوزارة الآن؛ حيث لا يمكن تسفيه عملها في سياسة خارجية، فضلًا عن أن قيصر روسيا عازم على زيارة فرنسا

رسميًّا، ولا يريد مستلمو زمام الحكم أن تصير مقابلته في إبَّان أزمة وزارية.

وقد فهمت من صحافي واقف على خفايا الأمور أن الذي نشر تلك المقالة البذيئة بحق دولتكم في جريدة الفيغارو هو هنري فوكيه، وهو المكلف بتدبير الحملة الصحافية علينا. ويؤكدون أن ما دُفع لجرائد باريس والمقاطعات يناهز المليون فرنكا؛ لأجل تحبيذ عمل الحكومة، بنوع أن هذه القضية كانت كالمن لبني إسرائيل. إن جميع سكان باريس يعلمون أن هنري فوكيه هذا يؤجِّر قلمه لهذا وذاك، على شرط أن يدفع له جعلًا. وإنما المصيبة أن جريدة الفيغارو هي جريدة الفئة الأرستقراطية في فرنسا. كان بإمكاني العثور على المقالات التي أغدقتها هذه الجريدة مدحًا وثناءً على دولتكم قبل قطع العلائق؛ ليفهم الرأي العام الإفرنسي إخلاص تلك الجريدة فيما تنشره. وإنما لم أتجاسر على ذلك قبل الترخيص من دولتكم؛ إذ لا أريد أن أكون ملكًا أكثر من الملك (مثل إفرنسي). والغريب أن آخر اجتماعي بهذا الصحافي الشريف الأخلاق كان في سفارتنا في باريس يوم أحييتم دولتكم تلك الحفلة الشائقة، وقد ترأستها مدام كارنو (أرملة كارنو رئيس جمهورية فرنسا سابقًا، وقد اغتاله فوضوي في مدينة ليون) مما يدل أن المذكور كان من الذين يتظاهرون بالإخلاص لدولتكم.

وعليه إذا شئتم دولتكم أن أنشر ما أشرت إليه؛ فتفضلوا بإفادتي. لا شك أنكم ستعيدون في سريرتكم ما قلتموه لي ذات يوم عندما كنت متشرفًا لأخذ الطعام في منزلكم الخاص، أني كومباتيف يعني محب المقاتلة. كلا، لا يوجد من هو أصدق مني لمن أخلص لي، ولكنني

لست ممن ينامون على الضيم، وأحب أن أكيل الكيل كيلين لمن يتحامل عليَّ.

لقد تحققت أن مفتاح الشيفرة الخاص الذي تفضلتم بتسليمه إياي عند سفر دولتكم قد اكتشف في باريس. إن قضية دريفوس تدل على أنه لا يستحيل على مأموري الشيفرة في فرنسا حل جميع البرقيات السرية المارة بتلك العاصمة. وعليه أرجو دولتكم أن ترسلوا مفتاحًا جديدًا مع الإفادة إذا كان يجب أن يُوضع قبل رقمي الكلمة أو بعدها. ثم أعرض لدولتكم أني قد عزمت على إرسال برقياتي إلى دولتكم عن طريق برلين بواسطة سفارتنا فيها. ثم أرجوكم أن تكتبوا لي منذ الآن عن طريق هذه السفارة؛ كي أكون أمينًا أن جميع ما يصلني منكم هو صحيح غير مشوه؛ لأن جميع ما أتسلمه منكم عن طريق باريس يكون مغلوط الأرقام قصدًا، فلا يتسنى لي، والحالة هذه، حلُّه. وأرجو أن تذكروا أن الأخبار التي أرسلها لدولتكم عن طريق باريس هي مختلقة لا صحَّة لها، والمأرب منها تشويش الرأي العام الإفرنسي؛ إذ لا يخفاكم أن الشعب الفرنسي هو سريع التأثر شديد الانفعال (ثم ذكرت بعدئذ أخبارًا خصوصية لا محل لنشرها).

وبعد مضي بضعة أيام وردني الجواب الآتي المختصر مأخوذًا على الزنك مع ترجمته:

يا مير صاحب التدبير والحشم

أصوب مساعيكم ومسرور بالنتيجة. لكن كن حذرًا يقظًا، اسلك بدقة وسرعة في الوقت الأنسب. العفارم.

إن مفتاح الشيفرة خاصتكم يبتدئ بعد ٦٨، ثمان وستين.

السلام والدعاء.

ص. م
(أي صالح منير)

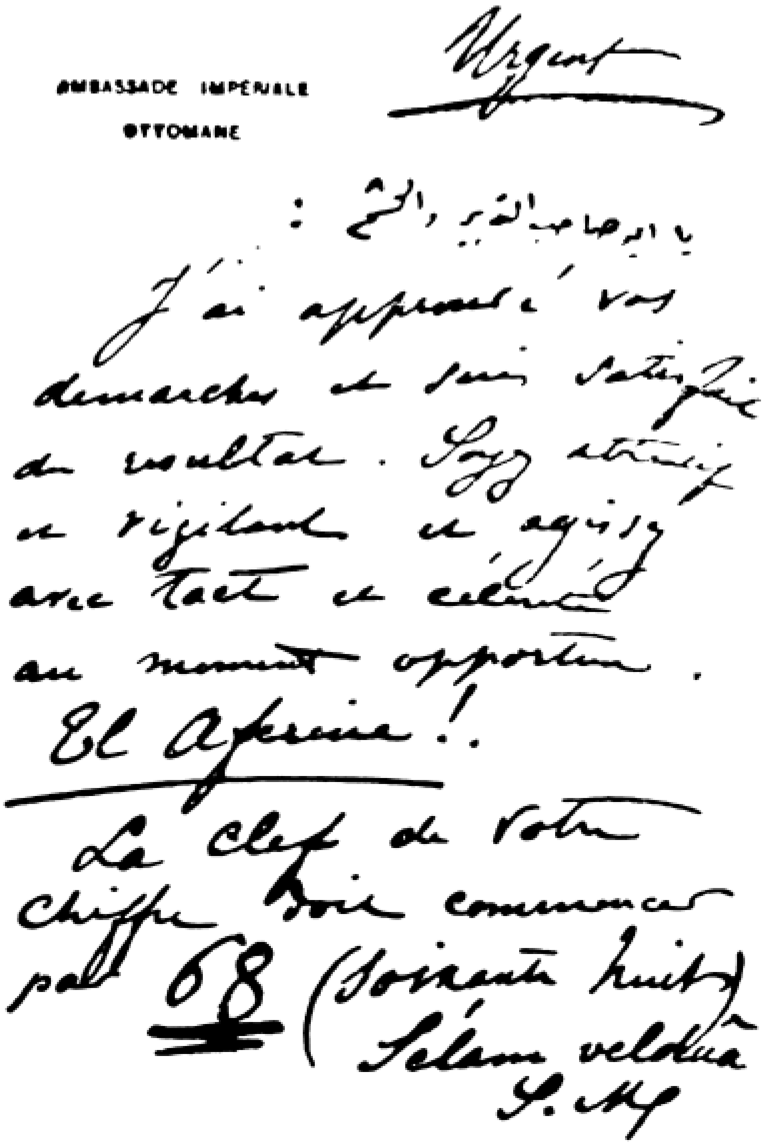
AMBASSADE IMPERIALE
OTTOMANE

Urgent

J'ai apprécié vos démarches et suis satisfait du résultat. Soyez attentif et vigilant et agissez avec tact et célérité au moment opportun.

El aferim!.

La clef de votre chiffre doit commencer par 68 (soixante huit)

Sélam veldua

S. M.

وحدثت في مجلس النواب الإفرنسي مناقشةٌ عنيفة حمل بها الاشتراكيون حملةً شديدة، حتى إن المسيو سامبا ختم خطابه: «إن فرنسا التي تفاخر بأنها محررة الأمم أصبحت الآن تحصيلدار لمدائنين بالربا.» وحدث ما توقعته أي إن الوزارة لم تسقط، وإنما هبطت أكثريتها من ٢٧٠ إلى ٤٥ صوتًا. وكان الفضل بإنقاذها زيارة قيصر روسيا لفرنسا يومئذٍ. وبعد رجوعه إلى بلاده خرج الأسطول الإفرنسي كما أخبرني قبلًا الصحافي الإفرنسي في باريس، واحتل ثغر جزيرة متلين واستولى على جمركها. وحيث لم تعترض إحدى

الدول على هذا الاحتلال حتى ولا ألمانيا صديقة تركيا والسلطان، اضطرت الدولة أن تدفع القيمة المطلوبة صاغرةً، فخرج الأسطول عائدًا إلى طولون وعادت العلائق السياسية. وحيث إن الحكومة الإفرنسية لم ترضَ تبديل سفيرها المسيو كونستان الذي كان سبب هذه الأزمة؛ فقد أصر السلطان أيضًا على إعادة سفيره منير باشا إلى باريس.

وبعد وصوله بأيام قلائل أبرق لي ما تعريبه:

بناءً على ... تعطفت الحضرة الشاهانية، فأنعمت عليكم بالرتبة الأولى أي لقب «سعادتلو أفندم».

وقد أراد دولته أن يظهر بذلك امتنانه بما قمتُ به في أثناء هذه الأزمة السياسية، وظن أن إنعامه عليَّ بالرتبة الأولى دفعة واحدة (حيث كانت العادة أن تُعطى الرتب بالتدريج من الرتبة الثالثة؛ أي: رفعتلو إلى الثانية أي عزتلو إلى الأولى أي سعادتلو) سيقع لديَّ موقعًا حسنًا؛ لأنه يدل على التفات خاص، وإنما الحقيقة كانت خلاف ذلك؛ لأني كنت أريد عدم الحصول على أية رتبة كانت. أولًا: لأني أعتقد من صميم الفؤاد أن الرُّتب والوسامات مهما عظمت لا تزيد مقام المرء، ولا اعتبار أحد له. ثانيًا: لأنه في عهد عبد الحميد كانت تُعطى الرتب مرارًا للمستحقين وغير المستحقين. ومع ذلك فلما كنت مضطرًّا إلى التشكر؛ فقد أبرقت إلى السفير جوابًا، هاتين الكلمتين: «أشكر دولتكم.» وعبثًا حاول رفقائي في السفارة إقناعي بأن أبرق إلى تحسين باشا سكرتر السلطان، أُعرب عن تشكراتي للحضرة الشاهانية من هذا الالتفات الخاص، فرفضت رفضًا باتًّا ولم أبرق شيئًا.

هذا وبعد أن مضت الأسابيع والشهور على تلك الأزمة، وأمست في خبر كان، طلعت علينا جرائد باريس وفيها خبر فضيحة جديدة أمام المحاكم،

وهي مطالبة السماسرة الذين رشوا الجرائد وباعوا الضمائر بالقيمة التي تعهد لهم بها. وأكتفى هنا بترجمة ما علقته جريدة الماتين المشهورة على نشرها خبر المرافعة أمام المحكمة قالت:

> تستحق هذه الدعوى تعليقًا. نعتقد أنه لا يجب على الجرائد قبول درهم واحد ما عدا ما تتقاضاه على إعلاناتها، وإن هذه الإعلانات يجب أن تعلن في حقولها. ويسوءُنا أن بعض الجرائد تتقاضى جعلًا على كل ما تنشر، سواء كان ذلك في حقل المحاكمات أم الافتتاحيات، فضلًا عن الأخبار. وليس هذا فقط، بل تتقاضى أجرة مقابل التشويق لكل الأمور، سواء كانت أدبية أو سياسية أو صناعية أو مسرحية.

فلم تتجاسر جريدةٌ واحدة في باريس أن تكذِّب هذا التعليق الجارح، والنامَّ عن عدم نزاهة الصحافة الباريسية. وهكذا كانت خاتمة تلك المأساة السياسية المضحكة المبكية.

رفض ليوبولد الثاني ملك البلجيك قبول سفير عثماني

عندما عُينت قنصلًا عامًّا في بروكسل، عاصمة البلجيك، وخُوِّلت حق الإشراف على قناصل الدولة، كان سفير الدولة العثمانية في ذلك الوقت قره تيودوري أفندي، وهو يوناني الأصل عثماني التبعة، كثير الاطلاع وقد درس علم الحقوق في ألمانيا. فكان هو عميد السفراء؛ إذ مضى عليه في العاصمة البلجيكية اثنتان وعشرون سنة، وله مقام رفيع عند الملك وعند علية القوم.

وفي أحد الأيام تبلغنا أن السلطان عبد الحميد قد أمر باستدعائه وتعيين منير باشا سفيرنا في باريس بديلًا عنه. إلا أن جلالته لم يراعِ، بتعيينه هذا، القاعدةَ المتبعة في حقوق الدول، وهي متى أراد ملكٌ استدعاءَ سفير له في عاصمة إحدى البلدان، فعليه أولًا أن يخبر الحكومة التي فيها ذلك السفير المستدعى، ويسألها إذا كانت ترضى عمن سيخلفه (برسونا كراتا). ولما كان الملك ليوبولد ذا كبر وخُيلاء؛ فقد عظم عنده خرق السلطان العادة المتبعة، وحسبه احتقارًا له ولحكومته وبلاده لكونها صغيرة لا أهمية لها، ولهذا رفض رفضًا باتًّا الاعتراف بالسفير الجديد، وقبوله في عاصمة مملكته.

ويخلق بي قبل أن آتي على تفاصيل ذلك الخلاف أن أذكر شيئًا عن مملكة البلجيك وأخلاق مليكها ليوبولد الثاني؛ تعميمًا للفائدة ونظرًا لما لهذا العاهل من المقام والمنزلة في تاريخ أوروبا.

البلجيك وملكها ليوبولد الثاني

لا مراء أن مملكة البلجيك تُعَدُّ الأولى سكانًا في العالم قاطبة، بعد لبنان، بالنسبة إلى مساحتها، ومعدل عدد السكان في كل كيلومتر من أراضيها. وشعبها مؤلف من عنصرين، العنصر الأول «والون» ولغته الفرنسية، والثاني «الفلمنك» ولغته الفلمنكية، وهي قريبة من الألمانية. وكلا العنصرين مشهور بالنشاط والإقدام والثبات على الأعمال، الأمر الذي نجم عنه تقدم تجارة البلجيكيين وصناعتهم، حتى أصبحوا يزاحمون أعظم الدول تجارةً وصناعةً نظير إنكلترا وألمانيا، وقد اشتهر ملكها ليوبولد الثاني، بفرط ذكائه وعلو همته وبُعد نظره في الأمور، وولعه في التجارة؛ حتى قيل عنه: «لو لم يولد ملكًا لصار من أعظم تجار العالم وأوفرهم غنًى.» وأكبر دليل على ذلك: استيلاؤه على الكونغو الأفريقية مجازفًا بشطر كبير من ثروته الخاصة، ثم تركها بعد وفاته لمملكته، وهي تُحسب من أغنى مستعمرات العالم.

وكان الملك رغَّابًا رغبة شديدة في إشادة الأبنية الضخمة الشاهقة، وجل ما في البلجيك من هذه الأبنية، نظير المتاحف والكليات إلخ، هو من مؤسساته. وقد كان يذهب بنفسه مذهب الكبر والخيلاء، ويكثر من التمسك برسوم التشريفات، فكان لا يصافح أحدًا من الساسة إلا إذا كان برتبة مستشار. ومن غريب أطواره أنه كان يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب، فكان يقول لحوذيه مثلًا: «انتظره في مكان كذا.» بديلًا عن «انتظرني» أو «هو مسرور منك» عوضًا عن «أنا مسرور منك» وما حاكى ذلك.

وكان عندما يمشي يميل بمشيته نحو العرج، واشتهر بكرهه لبس الأحذية الجديدة، حتى كان يؤثر عليها القديمة ولو مرقعة، وكان الخدم يكونون له

الصحف قبل تقديمها له؛ كي لا يرى طياتها.

وكان كثير الفزع والخوف من الإصابة بالرشح والنزلات، وقد درى أركان حربه ورجال حاشيته بهذا الوهم المستولي عليه، فاستثمروه لمصلحتهم. فكان أحدهم، إذا أراد أخذ رخصة يتظاهر أمامه بالسعال والأح، فيقول له الملك حالًا: أنت يا فلان بحاجة إلى أسبوع راحة.

وكان جميع المحيطين به يخشون قوارص كلامه، ولا يتجاسر أحد أن يبدي أمامه ملاحظة أو يتكلم بحرية. يدلك على ذلك القصة التالية:

لقد عرف القاصي والداني خبر عشيقة الملك الأخيرة الكونتة «دي فوغان» إحدى غاويات باريس. وقد أسعدها الحظ فتمكنت بدهائها وجمالها، من جعل الملك الشيخ، الذي كان في ذلك الوقت قد أخذ بمخنق السبعين، يتعلقها ويتدلَّه بحبها ورُزق منها ابنتين، قيل إن والدهما الحقيقي كان أحد أركان حربه، وقد تزوجها بعد وفاة الملك الذي ترك لها إرثًا يبلغ نحو ثلاثين مليون فرنك.

وعندما كان ليوبولد منفصلًا عن امرأته الملكة، كانت هذه تصرف فصل الصيف في مدينة «أسبا» البلجيكية المشهورة بمياهها المعدنية، أما هو فكان يصيِّف في مصيف «أوستاند» الشهير. وكان يستأجر لعشيقته المذكورة مصيفًا محاذيًا لقصره احتفر فيه نفقًا يوصل إلى صديقته؛ ليذهب إليها خلسة أي وقت شاء بعيدًا عن عيون الرقباء والعذَّال.

واتفق صباح أحد أيام الآحاد، بعد أن سمع الملك القداس، أن ذهب لزيارته الكاهن مرشد البلاط الملوكي، فوجده يتنزه في حديقة القصر، وعلى محيَّاه سيماء البهجة والسرور. فدنا منه الكاهن وحيَّاه بكل تجلة واحترام.

فسأله الملك: ما وراءك من الأخبار يا حضرة المحترم، وما يتقول الناس؟

فظن ذلك الكاهن الجليل أن الفرصة سانحة ليخبر مليكه بتقولات الناس عليه وعلى عشيقته، فشرع يغمغم بكلامه دون أن يتجاسر على الإفصاح.

فألحَّ الملك عليه بالتصريح دون رهبة. عندئذ قال الكاهن الشيخ: أنت تعرف يا ذا الجلالة تقولات الناس وألسنتهم النمامة.

فسأله الملك: وماذا تتقول تلك الألسنة، قل ولا تخشَ؟

فأجابه الكاهن بكل تخشع: تقول تلك الألسنة إن لجلالة الملك عشيقة و...

فقاطعه الملك ضاحكًا: وهل هذا هو الأمر الشاغل أفكارك أيها الأب؟ ألا تعلم أن تلك الألسنة قد قالت إن لك عشيقة أيضًا؛ إلا أن الفرق بيننا هو أنني أنا لم أصدق تلك التقولات. قال هذا وأدار ظهره ومشى.

ليوبولد وشئون مملكته

كان الملك ليوبولد ولوعًا بالأسفار محبًّا للتنقل؛ إلا أنه على الرغم من ذلك كان كثير الاعتناء بمصلحة مملكته ورقيها ورفاهية رعيته، وكان يصغي إلى كل شكوى تعرض عليه.

أظن أن لم يتجاسر أحد من البلجيكيين على مخالفة أوامره ومشيئته طيلة ملكه الطويل سوى اثنين فقط.

الأول: رئيس بلدية بروكسل الموسيو بولس، والسبب لهذه المخالفة هو: كانت حديقة البلدية مقابلة قصر الملك، وكانت ساحة ذلك القصر غير

مربعة، وتحتاج إلى تربيعها قطع ثلاث أشجار من حديقة البلدية. فبذل الملك جهده ليحمل رئيس البلدية على أن يسمح بقطع تلك الأشجار؛ إلا أن جميع مجهوداته ذهبت سُدًى طيلة سبع عشرة سنة، أي إلى اليوم الذي استقال فيه الرئيس المذكور من رئاسة البلدية.

والثاني: العلَّامة أرنست نيس، أعظم متشرعي أوروبا بالمسائل الدولية، وأستاذ في كلية الحقوق وصاحب تآليف قيمة يُعوِّل عليها العلماء بهذا الفن. عندما وقع نزاع بين ملك البلجيك وإنكلترا على «الكونغو» استعان الملك بالعلامة نيس للدفاع عن حقوقه الشرعية، وكان يستدعيه إلى قصره في «لاكن» الواقع خارج بروكسل، حيث كان يدرس وإياه أمر الدفاع، وكان شديد الإعجاب بعلوم الأستاذ وسعة اطلاعه، فاتفق في أحد الأيام أن دخل الحاجب وأعلن للملك أن قد حان وقت الطعام، فنهض الملك وقال للعلامة نيس: هلم نأكل ونسترح قليلًا. فأجابه: أرجو المعذرة يا صاحب الجلالة؛ لأن أحد أصدقائي ينتظرني على الغداء، وكان الذي ينتظره هذا العاجز؛ إذ كنا نتناول طعام الغداء كل يوم في أحد المطاعم على مائدة خاصة.

فقرع الملك الجرس وأمر أن تهيأ عربة لتقل الأستاذ للمدينة، فاعتذر الأستاذ ثانيةً قائلًا: أرجو صاحب الجلالة ألا يعودني ذلك؛ لأنني أفضل ركب الترامواي.

فضحك الملك، وقال: لا أستغرب وقوع هذا الأمر منك. لأن الأستاذ كان مشهورًا بحبه الزائد للاستقلال، وبحرية ضميره، حتى إنه عندما كان رئيسًا لإحدى المحاكم أبى أن تطأ رجلاه عتبة القصر الملوكي لحضور حفلة رسمية، كما أنه لم يحضر أبدًا حفلة إقامة «صلاة الشكر» (التاديوم) في كاتدرائية بلاده.

تجارة البلجيك مع تركيا

لم تكن المعاملات التجارية بين تركيا والبلجيك ذات أهمية كبيرة وكان جُلُّها مقتصرًا على مصر وبلغاريا، ولا يغرب عن الذهن أن تينك المملكتين كانتا في ذلك العهد تحت سلطة تركيا السياسية على الرغم من كونهما مستقلتين. ولهذا كانت الدهشة تلم بالبلجيكيين عندما يذهبون إلى قنصل إنكلترا لإتمام معاملتهم التجارية مع مصر فيحيلهم إليَّ، بمعنى أن السلطة الفعلية كانت بيد المصريين، أما السلطة الاسمية الوهمية فكانت بيدنا.

الطلبة العثمانيون

لقد كان عدد الطلبة العثمانيين الذين يدرسون في البلجيك كثيرًا، ومعظمهم يدرس في مدرسة «سان بلو» الزراعية المشهورة بجودة تعليمها. وقد شجعت الطلاب لطلب علومهم في هذا المعهد الشهير باستقدامي من لبنان «رفيقًا» نجل أخي الأكبر المرحوم سعيد، ووضعته في تلك المدرسة التي أكمل فيها جميع علومه الزراعية.

وكنت كثير العناية بالطلبة المذكورين لاعتقادي بحاجة الوطن الماسة إلى شبان يتلقون علومهم الصناعية في مدارس أوروبا الراقية؛ ولهذا كنت كلَّ أحد أدعو فئة منهم لتناول الطعام معي في دار القنصلية مقدمًا لها المآكل الشرقية، ثم نتنزه معًا توطيدًا للعلائق الولائية.

ويليق بي أن أذكر من عداد الطلاب الذين نجبوا في مدارس البلجيك المرحوم خير الله خير الله، الذي اشتهر بكتاباته في جريدة الطان الباريسية الكبرى.

ومما يحسن ذكره في هذه المناسبة الحديث الذي جرى بيني وبين رئيس جامعة لوفان وسياقه كما يلي:

كنت قد أشرت على صديقي المرحوم فائق بك غرغور أن يرسل نجله الكريم إلى جامعة لوفان، فعمل الصديق بموجب مشورتي وأرسل نجله، واغتنم صديقه السيد بشارة كرمي، وأرسل ابنه هو أيضًا برفقة ابن فائق بك. ولما وصلا بروكسل صحبتهما في اليوم التالي إلى لوفان وأرسلت بطاقتي إلى رئيس الجامعة، فاستقبلني حضرته بكل إكرام واحتفاء، وكان كاهنًا جليلًا ورعًا. وعندما عرَّفته بالغاية من زيارتي وهي إدخال الطالبين في الجامعة التي هي تحت رئاسته علت وجهه أمائر الحيرة والارتباك، وابتدأ يفرك يديه مرددًا العبارات التالية: أنت تعلم، يا حضرة القنصل جنرال، أن النظامات لا يمكن الشذوذ عنها، ويجب علينا اتباعها، ولا يتسنى لنا مخالفتها. وما حاكى هذه العبارات.

فلم أفهم بدأة ذي بدء ماذا يقصد بقوله، ولما طلبت منه زيادة الإيضاح ازداد ارتباكًا وحيرةً.

فأدركت عندئذ خطأه؛ لأنه ظن أن الطالبين مسلمان، ونظام الجامعة لا يسمح إلا بقبول الطلبة المسيحيين فقط، فتجاهلت ورغبت في الممازحة، وألححت عليه بالتصريح، فتحلب العرق من جبينه من فرط خجله، وأخيرًا قال: إن الجامعة لا تقبل إلا طلبة مسيحيين.

فأجبته ضاحكًا: ومن قال لك يا حضرة المحترم أن هذين الطالبين ليسا بمسيحيين؟ إنهما من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

فعلت على جبينه أمائر البغتة، وكاد لا يصدق ما قلت.

فزدت على كلامي السابق قائلًا: أنا لست بمسيحي؛ بيد أن هذا الأمر لا يمنعني أن أحسب هذين الولدين نظير أولادي. إن عدد الطلبة العثمانيين في البلجيك يزيد على الأربعين، ولا يوجد منهم سوى أربعة من المسلمين والبقية من المسيحيين، ومع هذا فإني أعتبرهم جميعًا دون فارق.

وقد عظمت دهشته عندما أخبرته أنني تلقَّيت علومي كلها في مدارس مسيحية، أولها في مدرسة الحكمة، وبعدها في كلية اليسوعيين في بيروت.

الجغرافي العلامة «اليزي ركلي»

ذكرت سابقًا أن المعاملات التجارية بين تركيا والبلجيك كانت زهيدة؛ ولهذا فكان لدي متسع من الوقت، وبما أن المولى لحسن الحظ لم يهبني موهبة فهم الألعاب على اختلافها، وكنت أكره كرهًا شديدًا الجلوس في المقاهي لقتل الوقت؛ انعكفت على الدرس والكتابة، وكان في بروكسل يومئذ جامعة حرة يُلقي فيها الجغرافي العلامة «ركلي» دروسًا في علم الجغرافية، فقيدت اسمي بين عداد طلبتها، وكنت مواظبًا على الحضور مواظبة دقيقة، لأن تلك الدروس كانت شائقة لذيذة جمة الفوائد.

واتفق ذات يوم عند وصولي إلى الصف أن شاهدت الطلبة ينظرون إليَّ ويتهامسون، فأدركت أنهم عرفوني وعرفوا أن ذلك الطالب ليس إلا قنصل جنرال دولة تركيا، الأمر الذي استغربوه.

وفي أحد الأيام ذهبت بعد انتهاء الدرس إلى العلامة ركلي وعرَّفته بنفسي، وسألته كيف تسنى له الاطلاع على حقيقة الشرق وتاريخه وعاداته؛ إذ ندر أن كتب مؤرخ أو جغرافي أوروبي عن الشرق وأبنائه، دون أن

يهرف بما لا يعرف سواه؛ فإن جغرافيته على غاية متناهية من الضبط والدقة. وهل زار الشرق ودرس أحواله وعاداته عن كثب؟ فأجابني لم يسعدني حسن الطالع بزيارة الشرق أبدًا، أما أسلوبي في الكتابة فكما يلي: عندما أعمد إلى درس حالة بلاد أو شعب أتصفَّح ما كتب عنها أو عنه في اللغات الإنكليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية، فإذا وجدتها متفقة على أمر ما، أؤكد عندئذ أن ذلك الأمر حقيقي، أما إذا وجدتها مختلفة حول إحدى القضايا، فأشرع حالًا بالدرس والتنقيب وتمحيص الحقائق لأعرف أي كاتب هو المصيب.

والغريب أن ذلك العلامة كان فوضويًّا في مبادئه وآرائه، ولهذا غادر فرنسا واستوطن البلجيك. وكان قنوعًا عفيف النفس لا تهمه الفخفخة ولا البهرجة ولا الألقاب، وكان ينفق جميع ما يربحه على رفقائه. ومما يضحك من أطواره ما يأتي: أخبرني صديقي العلامة «نيس» المتشرع الدولي المشهور وصديق العلامة «ركلي» الحميم النادرة الآتية:

كان «ركلي» من الفئة التي لا تقتات إلا بالنبات، وتحظر على نفسها أكل اللحوم؛ ولهذا فقد حظر على قرينته إدخال اللحم إلى منزله.

أما قرينته فكانت مغايرة له في هذا الرأي، وخشيت أن الاقتصار على أكل النباتات يضعف صحة قرينها، فكانت تطبخ الطعام سرًّا بمرق اللحم أو عصيره.

قال «نيس»: جاءني ركلي صباح أحد الأيام، وعلى محياه أمائر اليأس والاستياء، فقال لي: هل تعرف أيها الصديق أنني قد اكتشفت أمرًا يدعو إلى الأسى والأسف؟

فسألته: وما هو هذا الأمر يا صاح؟ فأجابني: اكتشفت أن امرأتي تخادعني.

فبذلت ما بوسعي كي لا أقهقه في الضحك؛ لأن امرأته كانت عجوزًا شمطاء، وقلت له: إن هذا الأمر مستحيل.

فصاح بي: لقد رأيتها رأي العين.

فقلت في نفسي آسفًا: لقد خولط الصديق بعقله، واحترت ماذا أقول له.

فكرر قوله لي: لقد رأيتها رأي العين كما قلت لك؛ إذ فاجأتها ذات يوم في المطبخ، فرأيتها تهيئ لي الطعام بعصير اللحم.

فأغربت في الضحك، وقلت له: الحمد لله بزوال مخاوفي وظنوني؛ إذ ظننت أن أصابك مسٌّ من الجنون.

فقال لي: وهل تريد خيانة أفظع من خيانتها، ومخادعة أعظم من هذه المخادعة؟

تأليفي في حقوق الدول

لما تسعرت نيران الحرب بين البوير والإنكليز، وكثر التقوُّل في اعتداء إنكلترا القوية الكبيرة على البلاد البويرية الصغيرة القليلة عدد السكان، خطر ببالي وضع مؤلف باللغة العربية في «شرائع الدول وحقوق الأمم»؛ لحاجة أبناء يعرب الماسة إلى مؤلف يبحث بهذا الموضوع الجليل، ونظرًا لنشوب الحرب آثرت نشر القسم الذي موضوعه في الحرب فقط، وقد عانيت الأمرَّين لوضع الكلمات الاختصاصية لعدم وجودها تقريبًا في لغتنا العربية.

وكنت أبعث فصلًا إثر فصل منه إلى مجلة «الهلال» في مصر، فكانت تنشره تباعًا على صفحاتها، وقد لاقت مواضيعه اهتمام القراء الشديد لمناسبته الأحوال والقرائن.

ثم جمعه «الهلال» عند انتهائه في مجلد خاص، وأشار عليَّ بعض الرفاق أن أرسله إلى نظارة المعارف الجليلة لأخذ رخصة بنشره طبقًا للنظام في ذلك الوقت، فرفضت العمل بمشورته؛ لاعتقادي الوطيد أن النظارة لا تصادق على نشره إلا بعد مسخه وتشويهه، كما كان يطلب مني المكتوبجي في بيروت يوم كنت أنشر تباعًا في جريدة «لسان الحال» الغراء سيرة نابوليون الأول؛ إذ كان يريد تشويه الحقائق التاريخية ومسخ المخابرات السياسية، ولو كانت الدولة العثمانية لا دخل لها بسيرة نابوليون.

وقد جرت العادة عند جل المؤلفين العثمانيين أن ينشر في مقدمة كل كتاب يطبع أسطر صَفْوتُها الدعاء إلى الذات الشاهانية، سلطان البرَّين وخاقان البحرين وما حاكى هذه الألقاب الفارغة والتدليس المكروه، أما أنا فرفضت التمشي بموجب هذه العادة، على الرغم من كوني من مأموري الدولة، وبدأت مقدمة كتابي بما يلي:

> رأيت حاجة اللغة العربية إلى كتاب في السياسة يبحث في حقوق الملل ومعاهدات الدول مما أحدثه التمدن الحديث، ولا يليق بأمة متمدنة أن تجهله، فعمدت إلى تأليف كتاب في هذا الموضوع، اعتمدت فيه على ثقات فلاسفة العمران وخيرة علماء السياسة إلخ.

ولما تم طَبْع الكتاب أرسلت منه نسخة إلى رئيسي توفيق باشا وزير الخارجية، وأخرى إلى إسماعيل حقي بك مستشار الباب العالي في الحقوق الدولية، وأستاذ علم الدول في كلية الحقوق في الأستانة، وهو الذي تولى الصدارة العليا في أيام الدستور. ومن المضحك أنه وصلني في بريد واحد رسالتان: الأولى من وزير الخارجية توفيق باشا يشكرني بها على وضع الكتاب وعلى إرسالي منه نسخة له، والثانية تحمل منع دخول كتابي إلى الدولة العثمانية.

وبعد مُضيٍّ بضعة أيام وصلتني رسالة من إسماعيل حقي بك سرتني سرورًا عظيمًا؛ لأنها أثبتت لي أنه قرأ الكتاب بإتمام نظر؛ إذ قال لي فيها: إنه طالع كتابي بتدقيق فألفاه يوافق الطريقة التي يستعملها هو نفسه بإلقاء الدروس على تلامذته.

اختلافي مع السفير

لقد كانت علائقي ولائية مع السفير إلى اليوم الذي وصل فيه إمبراطور ألمانيا إلى حيفا في زيارته الشهيرة. عدت مساء ذات يوم إلى دار القنصلية، فوجدت تحريرًا من السفارة. ولما فتحته وجدت فيه ما يلي: «بناءً على أمر من الباب العالي يجب الانتباه كثيرًا في التعليم على أوراق هوية الأشخاص الذين يقصدون فلسطين مدة سياحة إمبراطور ألمانيا، وأن المسئولية تقع على هامتي إذا حدث ما يعكِّر صفاء راحة الإمبراطور في تلك الرحلة من شخص أعطى أوراق هوية أو علم عليها من قنصليتي.»

ولما نظرت إلى التاريخ وجدته قد مضى عليه عشرون يومًا، فعظم عليَّ جدًّا أن أتبلغ ذلك الأمر الخطير في اليوم ذاته الذي وصل فيه الإمبراطور الألماني حيفا، ولا سيما لما فهمت من خادمي أنه أمضى وصلًا بوصول التحرير، وأن الوصل لا يحمل تاريخ التسلم، بمعنى أن السفير أراد أن يتخلص من إهماله بتبليغي ذلك الأمر وإلقاء التبعة عليَّ، فدخلت حالًا إلى مكتبي وكتبت إلى السفير ما معربه:

عندما عدت في هذه الساعة إلى دار القنصلية؛ وجدت رسالة دولتكم المؤرخة في ... نمرو ... وبها تبلغونني ... وكما لا يغرب عن بصيرتكم أن الأنباء البرقية قد حملت على أجنحتها اليوم خبر وصول جلالة إمبراطور ألمانيا إلى حيفا، وبما أن بلاغكم الذي تلقون به

المسئولية على عاتقي، إذا حدث ما يُكدِّر صفاء راحة الإمبراطور، لم يصلني إلا اليوم؛ على الرغم من أن تاريخه منذ عشرين يومًا، فلهذا لا أستطيع قبول تلك المسئولية، وإنني أعيد رسالة دولتكم طيه بكل احترام.

ولا ريب أن حضرة السفير قد استاء استياءً شديدًا من تحريري هذا، وعلى الأخص لإعادتي له رسالته المرسلة لي، وأعترف الآن بخطئي، وأنني قد تجاوزت الحد بإعادتي ذلك التحرير، ولكن هو نزق الشبيبة، وقد كانت يومئذ عادة السفراء والوزراء عدم احترام المأمورين الذين هم تحت أوامرهم، وهذا هو السبب الذي جعلني دائمًا على اختلاف مع رؤسائي؛ لتمردي على تلك العادة الجائرة.

وكنت أتحين الفرص لإعادة مياه العلائق الولائية التي كانت بيني وبين السفير إلى مجاريها؛ نظرًا للاحترام الشديد الذي كان له في قلبي، ولكن لسوء الحظ باغتتنا الإرادة السنية صباح أحد الأيام بعزله، وتعيين منير باشا سفيرنا في باريس يومئذ مكانه كما قلت سابقًا.

ولما كان لا يوجد في سفارتنا بالبلجيك سوى باشكاتب، وهو مفيد بك الذي أشرت إليه سابقًا؛ فقد أصبح هو متولي السفارة. وفي أحد الأيام كتب إليَّ منير باشا يطلب منه كي يرسل له رسالة السلطان الذي يستدعي بها قره تيودوري ويعيِّنه بديلًا عنه، ويتعهد له بتقديم تلك الرسالة إلى الحكومة البلجيكية. ولما وصلته امتطى عربته وسار ميممًا وزارة الخارجية. وعندما حظي بمقابلة الوزير باغته قائلًا: إنني مكلفٌ بتقديم تحرير متبوعي الأعظم باستدعاء قره تيودوري أفندي، وتعيين منير باشا سفيرًا بديلًا عنه.

فأجابه الوزير: لا أستطيع قبول ذلك التحرير إلا برخصة من جلالة مليكي.

فقال له مفيد بك: إذن ترفضه؟ فأجابه: كلا لا أرفضه. ودامت هذه المحاورة هنيهة عاد مفيد بك على أثرها بخفَّي حنين. فدخل مكتبي في القنصلية وهو يرتجف غيظًا وحنقًا وقال: أرجو مساعدتك في إرسال برقية إلى الأستانة لقطع العلائق مع البلجيك؛ لأن وزيرها رفض قبول تحرير السلطان، الأمر الذي أعدَّه إهانة عظيمةً لا يمكن الإغضاء عنها.

ولما رأيته على هذه الحالة من الغضب، وجدت من الحكمة عدم معارضته وانتقاد صنيعه؛ إذ بذلك يزداد غيظًا وحنقًا وتسوء الحالة، بل الأفضل الانتظار إلى أن يخبو ضرام غيظه ويثوب إلى حلمه. فقلت له: اجلس أمامي، واكتب أولًا البرقية قبل ترقيمها، فأخذ قلمًا وشرع يكتبها بالفرنسية. فقلت له: أرى من المناسب كتابتها بالتركية — وكان قصدي من كتابتها بالتركية إطالة الوقت؛ لأن ترقيمها يحتاج وقتًا أطول منه بالفرنسية — فلما أتمها سألته إعادة النظر فيها وتحوير بعض عباراتها. وعندما فرغ منها قلت له: إنني أفضِّل الكتابة فأملِئ عليَّ.

فوضع الشفرة أمامه وشرع يملي عليَّ وأنا أكتب ما أشاء؛ فإذا قال مثلًا: ٤٥٦٨ أكتب ٤٥٦٧. وبما أن لكل كلمة أربعة أرقام، يتعذَّر والحالة هذه فهم المراد، إذا وقع خطأ في رقم ما. وكنت أكتب بعد كل كلمتين عكس ما يقول. وبعد مضي ساعة على ترقيم البرقية، قلت له: أظن مناسبًا إعادة حل الأرقام خوفًا من وقوع خطأ فيها، فيتعذر عندئذ فهم المقصود. ولما كنت قد كتبت كثيرًا من الأرقام مغلوطة، فلم يفهم منها شيء مطلقًا. فابتدأ يعاتبني، فقلت

له: إن الخطأ لم يصدر مني بل منك؛ لأن الانفعال كان آخذًا منك مأخذه. والأفضل أن نرتاح قليلًا، ونشرب فنجانًا من القهوة؛ فقبل.

ولما رأيته قد عادت إليه سكينته وهدوءه، قلت له: هل تسمح أن أكلمك بصراحة وإخلاص؟

– نعم وإني أرغب في ذلك رغبةً شديدة.

فقلت: قبل كل شيء أرجو أن تتخلى قليلًا عن طبعك الأرناءوطي وأنك متولي السفارة، وهيَّا بنا نبحث في القضية بكل إخلاص. قل لي يا رعاك الله: ألا تعتقد أن حكومتنا أساءت فعلًا بصنيعها ومخالفتها القاعدة المتبعة، إذ سحبت سفيرها وعيَّنت بديلًا عنه دون إخبار حكومة البلجيك بذلك؟

فأجاب: بلى أعتقد أنها مخطئة.

قلت: هل تظن أن حكومتنا كانت تتجاسر أن تسير مع دولة كبيرة كفرنسا أو روسيا أو إنكلترا مثلًا سيرها مع البلجيك؟

فلم ينطق ببنت شفة. فقلت له: أرجوك أن تجيب على سؤالي بكل صراحة. فقال: لا أظن.

فسألته: ألا تعتقد أن حكومتنا فعلت مع البلجيك ما فعلت استصغارًا لشأنها؛ لأنها دولة صغيرة لا حول لها ولا طول؟ وهبك أنك أنت وزير خارجية البلجيك؛ ألا تفعل نظير ما فعل؟ وعليه فطالما نحن على ثقةٍ وطيدة أن حكومتنا هي المخطئة؛ فهل ترى من الشرف أن نزيد الطين بلة ونطلب قطع العلائق السياسية، عوضًا من أن نسعى لإطفاء تلك الجذوة قبل تسعرها وامتداد لهيبها؟ ثم إذا قطعنا العلائق مع البلجيك فسيعرف أهل الأرض طرًّا السبب الذي أدى إلى قطعها، وستكون النتيجة من غير بد تأليب الرأي العام

علينا لمخالفتنا القاعدة المتبعة. وبعدئذ يبحثون في الأستانة عمن سبَّب قطع هذه العلائق ويلقون المسئولية عليك وحدك، فتكون بعملك هذا كالباحث عن حتفه بظلفه.

وبما أن مفيد بك كان شريف المبدأ حر الوجدان، فقد أذعن للحق لكنه قال لي: ولماذا لم تقل لي كل هذا حين وصولي، بل أشغلتني ساعتين عبثًا؟ فأجبته ضاحكًا: لأنك عندما دخلت عليَّ كان الغضب آخذًا منك كل مأخذ، فلو عارضتك ساعتئذ لتصلبت برأيك وزاد غضبك زيادة عظيمة، فعوَّلت على إطالة الوقت كي يهدأ روعك، ثقةً منِّي أنك ستذعن للحق.

قال: ولكن كيف تمكن ملافاة الأمر؟

فأجبته: دعني أذهب إلى وزارة الخارجية؛ إذ تعلم أن لي دالة لديها.

أما قصة الدالة التي كانت لي عند الحكومة البلجيكية فهي:

في أحد الأيام أخبرني سكرتير وزارة العدلية، أن الوزير يرغب في مفاوضتي بأمر يتعلق بأشغال القنصلية، فقلت له: سأكون في الوزارة بعد قفل أبواب قونشليريتي.

وعندما أنهيت مهام أعمالي توجهت إلى الوزارة ماشيًا. ولما وصلتها ألفيت الجند مطوقًا قصر الوزارات من جراء اعتصاب كبير، وخوفًا من دخول المعتصبين الوزارات. فواصلت سيري راغبًا في الدخول مخترقًا الجند، فأسرع إليَّ أحد الضباط، وقال: ممنوع المرور. فقلت له: اسمح لي أولًا أن أعرفك بنفسي. فأجابني حانقًا: لا يهمني من تكون. فحاولت أن أخرج من جيبي بطاقة الزيارة. فازداد حنقًا وصاح بي: إن لم ترجع يا هذا على

عقبيك؛ فإني ألقي القبض عليك حالًا. وتقدم نحوي غاضبًا وقد تشنجت أعصابه. فشممت رائحة الخمرة تنبعث منه، وأدركت حينئذ أنه ثمل.

وقد شئت بادئ بدءَة أن يلقي القبض عليَّ، ويزجني في السجن لتكون عقوبته شديدة؛ لقاء ما يرتكبه، إلا أنني أدركت بعدئذٍ حرج مركز الحكومة أمام الرأي العام، ولا سيما أمام الاشتراكيين الذين سيسلقون الجيش بألسنة حداد؛ لتكليفه ضباطًا سكيرين بالمحافظة على النظام، وأن وزير الخارجية سيضطر إلى الذهاب ببزته الرسمية في اليوم التالي للاعتذار من سفيرنا. فعدت إلى القنصلية وكلمت بالتليفون سكرتير وزارة العدل، وأخبرته بما توقع. فعظم عنده الخبر وقال لي: أرجو أن تنتظرني؛ لأنني قادمٌ إليك بعربة الوزير لأحضرك معي. وهكذا كان.

ولما دخلت مكتب الوزير خف لاستقبالي ووضع يدي بيده شاكرًا ممتنًا لتداركي وقوع تلك الفضيحة، وقال لي: إن الحكومة تحسبني، لصنيعي هذا، صديقًا مخلصًا لها أغار على شرفها وأحافظ على كرامتها.

وهكذا كانت لي بعد ذلك الحادث الطفيف دالة عظيمة عند الحكومة.

أذكر مرة أن أربعة من الطلبة العثمانيين الأولى كانوا يتلقون دروسهم في مدرسة الزراعة في جامبلو، رسبوا في فحصهم السنوي فجاءوا إليَّ يشكون ما سيلحق بهم من الخسائر المادية إذا كانوا سيعيدون سنتهم المدرسية، ويرجونني كي أسترحم لهم مدير المدرسة ليسمح لهم بتقديم فحصهم مرة أخرى في آخر العطلة الصيفية. فأخذتني الشفقة عليهم وذهبت إلى وزارة الخارجية، ورجوت الوزير كي يتوسط بالأمر لدى وزير الزراعة. وعلى الرغم مما كان بذلك من الصعوبة فقد تسنى لي الحصول على طلبي، ومساعدة أولئك الدارسين.

وعندما أوشك معرض لياج الدولي يقفل أبوابه، طلبت حكومة البلجيك من بقية الحكومات أن تعيِّن ممثلين عنها لتأليف مجلس «الجوري» ليعطي جوائز على عارضي بضائعهم ومنتوجاتهم، فعينت فرنسا اثنين من وزرائها القدماء. وأعلمت وزارة البلجيك متولي سفارتنا أنها لا تقبل ممثلًا للدولة العثمانية سواي. فتعينت ممثلًا عنها، ثم أُسند إليَّ تمثيل حكومات اليونان والعجم ومراكش فكان لي أربعة أصوات. وحدث في الاجتماع الأول أنني عندما دخلت قاعة الاجتماع وجدت أنهم وضعوا ممثل بلغاريا فوقي. فقلت في نفسي: إذا رفضت الجلوس بجانبه واعترضت على هذا الصنيع، حدث تشويش في الجلسة ونشزت معضلة أخرى، فتظاهرت حالًا أنني نسيت أمرًا مهمًّا، وخرجت للإتيان به. ولما ختمت الجلسة انطلقت نحو وزير الأشغال العمومية الذي كان رئيس اجتماعاتنا. فسألني عن سبب تغيبي عن حضور الجلسة الافتتاحية، فقلت له: يا حضرة الوزير، لقد نسي مرتب المقاعد أن بلغاريا هي تابعة لتركيا سياسيًّا، ولهذا لم أشأ أن أحدث تشويشًا ومعضلة باحتجاجي، فآثرت الخروج متذرعًا بنسيان حاجة. وقصدت إخباركم بالواقع كي تتدبروا الأمر كما ترونه موافقًا. فشكرني شكرًا جزيلًا على صنيعي هذا. ووجدت في الجلسة الثانية أن مقعدي كان بالقرب من ممثل إنكلترا. ولا ريب أن هذا الوزير قد أخبر زميله وزير الخارجية بعملي.

وعندما انتهى المعرض أنعم عليَّ ملك البلجيك بوسام ليوبولد من درجة أوفسيه. وعلقه على صدري البرنس أكبر الذي تسنم بعدئذٍ العرش، وتوفي في الآونة الأخيرة كما هو معلومٌ.

وقد قصدت من سرد هاتين الحادثتين أن أبيِّن كيف أنه من السهل على ممثل إحدى الدول، تمكين عُرَى الولاء بين دولته والدولة التي يقوم بمهام وظيفته فيها، إذا أخلص النية وكان صادقًا صريحًا. وهكذا لمَّا أراد صديقي

وزميلي متولي سفارتنا، قطع العلائق السياسية بين دولتنا والبلجيك للأسباب الآنفة الذكر؛ عملت جهدي للحيلولة دون هذا القطع؛ لأننا كنا نحن الملومين. ونظرًا للدالة التي لي على الحكومة البلجيكية؛ فقد كنت على ثقة أننا سنتوصل إلى إيجاد حل مُرضٍ لذلك الخلاف. فلما وصلت قصر الوزارة هرول السكرتير لمقابلتي قائلًا: هل تدري ما فعل زميلك متولي السفارة؟ فأجبته: هو عندي الآن في القنصلية وقد جاءها إثر خروجه من لدن الوزير وأطلعني على ما جرى. ثم أخبرته بكل ما حدث. فتنهد قائلًا: يا لك من صديق مخلص نزيه! وحبذا لو احتذى حذوك كل ممثلي الدول. والآن كيف العمل لتلافي عاقبة تلك السياسة الهوجاء؟

فقلت: إن قطع العلائق السياسية تضر بمصالحكم ضررًا فاحشًا دون أن تؤثر بنا؛ إذ كما لا يخفى عليكم أن لا يوجد تاجر عثماني عندكم سوى ذلك الأرمني بائع السجادات.

قال: إني أعرف ذلك جيدًا، ولكن كيف العمل؟

فأجبت: ماذا تقول إذا كان متولِّي سفارتنا يحرر إلى الوزير أنه مكلف بتقديم أوراق اعتماد سفيرنا الجديد. فقاطعني قائلًا: ولكن الوزارة لا تستطيع مجاوبته. قلت: لا أظن أن جواب الوزارة ضروريٌّ.

فسألني: وهل تظن أن متولي السفارة يكتفي بذلك؟

فأجبته: أظنه يكتفي، ومن السهل تحقيق ذلك إذا كنت تسمح لي بمكالمته بالتلفون. فقدم لي التلفون وخرج من مكتبه كياسةً وأدبًا.

فكلمت مفيد بك وألححت عليه بقبول ذلك الحل السلمي، فقبل. ولما أخبرت السكرتير بذلك دخل حالًا على الوزير وعرض عليه جميع ما توقع.

فوافق على ما ارتأيت. وهكذا حلت تلك المعضلة وطُوِي أمرها. إلا أن المشادة بين السلطان وملك البلجيك بقيت حتى إعلان الدستور العثماني؛ إذ استقال منير باشا من سفارتي باريس والبلجيك، واستقلت أنا أيضًا من القنصلية بعد أن توليتها طيلة عشر سنوات، أعدها أحسن أيام حياتي وأهنأَها.

خطة سياسية حربية بين اليابان والدولة العثمانية لسحق روسيا

أسعدني الطالع في أثناء وجودي في بروكسل عاصمة البلجيك، بمصادقة البارون موتونو، سفير اليابان في ذلك العهد، وقد توسمت فيه الذكاء والحنكة السياسية وبُعد النظر، ولو كان أوروبيًّا لكان من أكبر الساسة وأعظم الرجال. بيد أن إقامته في البلجيك لم تطل إذ رقي إلى رتبة سفير في بطرسبورج أهم سفارة لليابان على الرغم من كونه أصغر السفراء اليابانيين سنًّا، ثم عُين وزيرًا للخارجية في طوكيو. وقد شرفني ذلك السياسي الحاذق بصداقته، وكان يُكثر زياراته الولائية لي في القنصلية ومنها نخرج للنزهة سيرًا على الأقدام.

ذرَّ قرنُ الحرب الروسية اليابانية، ودمرت اليابان أسطول روسيا الضخم في خلال ثلاث ساعات، واستولت على ميناء «بورارثور» بعد حصار طويل شديد، وأحرزت الفوز الباهر على عدوتها برًّا بعد معركة موكدن الشهيرة. فلما ذاع نبأ ذلك الظفر توجهت إلى سفارة اليابان، ولما دخلت على البارون موتونو، قلت له: لا يجوز لي تهنئتك بالفوز رسميًّا؛ لأن الدولة العثمانية على الحياد، إلا أنني أقدم لك خالص تهانئي بصفتي الشخصية مثنيًا ثناءً عاطرًا على شجاعة جنودكم وحنكة قوادكم.

فقبض على يدي شاكرًا ثم دعاني إلى الجلوس، وأمر بإحضار الشاي وأوصى الخادم بأن يخبر كل زائر يسأل عنه أنه متغيبٌ عن السفارة. شرعنا نتجاذب أطراف الأحاديث بمواضيع شتى، وأخيرًا قال لي: آسف، إنكم أنتم العثمانيين لا تغتنمون هذه السانحة، سانحة انهماك روسيا، أعدى عدوة لكم، بمحاربتنا وإرسالها معظم جيوشها لمناوأتنا؛ فتهجمون على الولايات الآسيوية التي سلختها عن أملاككم في حربها الأخيرة معكم، وتحتلون باطوم الغنية بالمناجم البترولية. وإنني أؤكد لكم أنكم إذا فعلتم ما أقول فستحتذي بولونيا حذوكم، ثم تتشبه بها فينلاندا في الشمال. وينجم عن ذلك تسعُّر نيران الثورة الأهلية في بطرسبرج، ويسقط ذلك التمثال العظيم (كولوس) سقوطًا هائلًا لا قيام بعده.

فلما سمعت ذلك الكلام أشرق أمامي نورٌ جديد، واستصوبت تلك الخطة الرائعة. وبعد هنيهة قلت: ولكن لا يخفى عليكم، يا حضرة السفير، أنه إذا هاجمنا روسيا تهاجمنا فرنسا؛ لأنها حليفة لها. فأجاب: لا، إن فرنسا لا تبدي حراكًا أولًا، خوفًا من ألمانيا، وثانيًا خوفًا من إنكلترا حليفتنا. فقلت: هل تظن أن حكومتكم تعقد معنا معاهدة؟ إنها لا تعقد مع روسيا سلمًا على حدة إلا بالاتفاق معنا إذا أعلنا الحرب على روسيا؟

فأجاب: لا أستطيع الجزم بذلك والتعهد به، قبل مخابرة حكومتي، إلا أنني أؤكد لك أن ذلك ليس من المستحيلات، ثم أضاف إلى ما تقدم قوله: آسف أنه لا يوجد لنا سفير في الأستانة، ولكن يمكن المخابرة مع سفيرنا بلندن بواسطة سفيركم فيها، وأكرر لك القول: إنه من المؤسف أن تضيعوا هذه الفرصة التي هيهات أن يسمح بها الدهر لكم مرة أخرى.

فقلت: لو كان بيدي حيلة لما تأخرت دقيقة واحدة عن العمل بموجب هذه الخطة المدهشة المصيبة، إنما أخشى أن جلالة السلطان لا يرضى بها؛ لأنه محب للسلم إلى درجة متناهية.

فقاطعني قائلًا: وحربكم مع اليونان؟

فأجبته: لقد أرغمه الجيش على خوض غمارها، إذ جل اعتماده في سياسته على الجيش.

فقال: اجتهدوا إذن بأن يعيد الجيش حملته عليه مرة أخرى مذكرًا إياه بأن قيصر روسيا بمداخلته، قد حال دون دخوله أثينا ظافرًا فائزًا.

فكررت أمامه القول: إنه من الأسف عدم اغتنام تلك الفرصة التي يندر أن يجود الزمان بمثلها.

وبعد أن لبثنا برهةً نتحادث بهذا الموضوع الخطير، أُبْتُ إلي منزلي معجبًا بتلك الخطة الصائبة. ولم أشأ أن أبلغ تلك الخطة إلا إلى السلطان نفسه دون وساطة أحد. وكان يومئذٍ وطنينا المرحوم نجيب باشا ملحمه حائزًا على ثقة عبد الحميد، فحررت له تحريرًا خاصًّا مع تقرير ضافٍ، وقلت له إنني أخشى أن بعضًا من ذوي الدسائس عديمي الوطنية يقدم إلى السلطان تقارير تسفه تلك الخطة لكونها مقدمة منكم؛ إذ لا همَّ لهؤلاء الدساسين الخونة إلا التشفي والانتقام. وعليه فالأفضل مفاتحة المشير أدهم باشا بالأمر (كان قائد الجيوش العثمانية في حرب اليونان)؛ لأن نفوذ الجيش أعظم من كيد الكائدين ومفاسد المفسدين. وختمت تحريري قائلًا: إذا تمكنت من إقناع السلطان باغتنام هذه السانحة؛ فسيخلد تاريخنا اسمك محاطًا بالشرف والوطنية.

مضت الأيام وتلتها الأسابيع والشهور، وانتهت الحرب الروسية اليابانية دون أن نبدي حركة أو أسمع على الأقل شيئًا عن تلك الخطة الصائبة. وبعد مدة اجتمعت بنجيب باشا فسألته عن مآل تقريري فقال لي: لقد أفسدوا عليَّ العمل، ووشوا بي إلى جلالة السلطان.

وبعد سنة من انتهاء تلك الحرب، كان جزاء روسيا لنا، لالتزامنا جانب الحياد الإهانة التالية:

مقتل قنصل روسيا في مناستير

خشية من أن يتهمني أحد بالتحامل أو المغالاة، أعرب في هذا المقام ما نشرته جريدة «لا ليبرته» الباريسية لمراسلها الذي انتدبته، وأرسلته إلى مقدونية ليراقب عن كثب الحالة السياسية فيها، وكانت يومئذ شغل أوروبا الشاغل. كتب المراسل بتاريخ أكتوبر من تلك السنة ما يلي:

إن مقتل قنصل روسيا في مناستير، ليس بحادثٍ خطير مفجع، ولا هو بناجم عن ثورة إسلامية على ممثل دولة مسيحية. ومن يطلع على ماجريات السياسة الروسية في تركيا؛ يدرك حالًا مغبتها وأخطارها.

لقد دققت كثيرًا في استقاء الأخبار من ثلاثة مصادر ثقة، وقد أجمعت على أن ما أكتبه بهذا الشأن لم ينشره أحد حتى الآن، ولا يتجاسر كاتب على نشره.

إن المسيو روسكوفسكي قنصل روسيا في مناستير يشغل مركزًا خاصًّا. وبما أنه غنيٌّ وذو نفوذ فقد أراد أن يدير أشغال قنصليته،

ومهام الولاية معًا. وهذه العادة جرى عليها ممثلو روسيا في تركيا، وتعودها الولاة الأتراك وصاروا يتحملون بصبر ليس فقط ما يقوم به القناصل من مخالفات وظائفهم؛ بل ما يقوم به أيضًا القونشليرية. وعليه فقد كان للموسيو روسكوفسكي نفوذٌ خاص عند الوالي. بيد أنه لم يكتفِ بذلك، بل شاء توسيع نطاق نفوذه وإيصاله إلى الشعب، راغبًا في أن يكون زعيمًا له، ولكن ليس بصفة رسمية سياسية. وكان المحور الذي تدور عليه سياسته؛ تهييج الأرثوذكسية على الإسلامية.

والموسيو روسكوفسكي لم يتكلم بإظهار عطفه على الثوار البلغاريين، فإن كل سكان مناستير يعلمون أنه كان يحضر اجتماعات الثوار السرية، وكانوا يأتون إلى القنصلية جهارًا دون خشية، الأمر الذي أساء هيئة القناصل في تلك المدينة.

وحدث في الثالث من شهر آب، بينا كان ذلك القنصل ممتطيًا عربته مع معلم أولاده البلغاري مينريلوف، مجتازًا طريق المحطة؛ وجد أحد الجندرمة جالسًا على كرسي وبندقيته على ركبته يلاحظ المارة بهدوء. ولما مر القنصل من أمامه ولم يكن القواس جالسًا بجانب الحوذي، لم يعرف ذلك الجندرمة، ولم يحيِّه التحية الرسمية، فأوقف القنصل عربته ونزل منها، فلم يحفل له الجندي، فما كان من القنصل إلا أن تناول سوط العربة، وشرع يضرب به الجندي ضربًا مبرحًا على وجهه وظهره. فنهض الجندي وتناول بندقيته وحشاها برصاصة واحدة. فطلب القنصل من مينريلوف مسدسًا فناوله إياه، ولما أطلقه على الجندي أخطأه. فأطلق عندئذ الجندي بندقيته على القنصل فلم يصبه؛ لأنه كان محتميًا بشجرة ضخمة، ثم عاد الجندي وحَشَا بندقيته مرة ثانية، وأطلقها على القنصل، فسقط يتخبط بدمائه.

فأرسلت سفارة روسيا لجنة من لدنها للتحقيق بالقضية، فقررت أن القنصل لم يكن معه سوط، ولكنها لم تذكر أن السوط كان للحوذي، وأنه لم يكن معه مسدس دون أن تشير إلى أن معلم أولاده هو الذي سلَّمه ذلك المسدس.

وعلى الرغم من أن الحادثة وقعت كما ذكرت ويعرفها أهل مناستير كبارها وصغارها، فقد أسرع السلطان وعزل الوالي علي رضا باشا وقاصَّ الجندرمة الذي كان متغيبًا عن مناستير يوم وقوع الحادثة، وأمر بسجن الجندرمة الذي كان مدافعًا عن نفسه. وغادر أسطول روسيا إثر هذه الحادثة مرفأه في سيباستوبول ميممًا البسفور فهلع السلطان هلعًا عظيمًا. وأبى سفير روسيا إلا إعدام الجندرمة فأُعدم وذهب ضحية قيامه بالواجب.

لا حاجة إلى القول إن وقع هذه الحادثة علينا كان وقعًا سيئًا جدًّا، ولا سيما لأن الرأي العام لم يكن قد نسي بعدُ قضية دين لورندو وتوبيني. وفي مساء اليوم ذاته الذي أذاعت الأسلاك البرقية فيه نبأ إعدام ذلك الجندرمة، كنت أتعشى مع مفيد بك الأرناءوطي الجنس والجنرال توفيق باشا والملحق العسكري، فلما اطلعنا على ذلك النبأ المشين انقطعنا عن الطعام وبدت أمائر الغضب الشديد على محيا مفيد بك، وترك الجنرال توفيق باشا المائدة دون أن ينبس ببنت شفة غيظًا وحنقًا، وسمعته هو خارج يقول بصوت منخفض: «قد طفح الكيل.»

واجتمعنا في اليوم التالي عندي في القنصلية للبحث في القضية، إذ كنت في مأمن من المراقبة والتجسس؛ لأنه لم يكن في القنصلية، عدا ساعات الشغل، سوى خادمة عجوز فلمنكيَّة الجنس على جانب عظيم من البساطة، لا

تفهم شيئًا من السياسة وغيرها، سوى القيام بما يُطلب منها من الخدمة، لهذا كنَّا بمأمن من المراقبة. وبعد الأخذ والعطاء قررنا بادئ بدء؛ انتقامًا للعار الذي لحق بالعثمانية، أن نهين سفير روسيا علنًا أين وجدناه، ولو في بلاط الملك. وفيما نحن نتباحث، دخلت علينا الخادمة، تعلن زيارة صديقي البارون موتونو سفير اليابان، فلما جلس قال إنه جاء يزورني مؤاساةً لنا على ما ألحقته بنا روسيا من المعرَّة والإهانة، فأخبرته بما عزمنا عليه. فقال: إذا سمحتم لي بإبداء رأيي الخاص كصديقٍ مخلص لكم؛ فإني أرى الأنسب ألا تفعلوا ما صممتم عليه، إذ بذلك تعرضون حكومتكم إلى عار أكبر؛ لأن روسيا ستطلب بعدئذ من غير بُدٍّ أمرًا ثقيلًا عليكم؛ تعويضًا على إهانة سفيرها، فلا تزيدوا الطين بلة، وتحملوا دولتكم بصنيعكم معرَّة أعظم من التي احتملتها.

إن الرأي العام عالم أن ما فرضته روسيا على حكومتكم هو على غاية من العنف والاعتداد. وبعد أن صمت هنيهة قال: لقد أضعتم الفرصة الوحيدة التي سنحت لكم، ولم تغتنموها للتملص من نير روسيا الثقيل، وهيهات أن يأتي الزمان بمثلها (أشار بكلامه إلى الخطة الحربية التي نوهت عنها في الفصل الفائت).

ويجدر بي أن أقول تعليقًا على ما تقدم: إن الثورة على عبد الحميد اندلعت ألسنتها من مناستير، وظهور أنور بك ونيازي بك الشهيرين كانا من مناستير نفسها، وسأذكر تفصيل ذلك في مذكراتي عن تركيا الفتاة.

قصة مهاجر

لم ينصرم أسبوعان على وصولي «بروكسل» إلا وصلني تحرير من وزارة عدلية البلجيك فحواه: أن يوجد رجل في مستشفى كذا، وجد في محطة انفرس، وبما أن ليس لديه أوراق تُثبت هويته؛ فقد طاف به البوليس على قنصليات الدول الأجنبية كلها، وكلموه بجميع اللغات، فلم يُجِبْ على إحداها. وهذا الرجل المجهول نزل من القطار الآتي من هولندا، وجيء به إلى هنا، وحيث إنه مصابٌ بنوع من الخمول والخبل؛ فقد وُضع في المستشفى. أخبرنا سفيركم هنا أنكم تتكلمون اللغات الشرقية، وعليه نرجو أن تتكرموا بزيارة الرجل المذكور لعله يتسنى لكم معرفة جنسيته، وإفادتنا عنه، فنكون لكم من الشاكرين.

فذهبت في اليوم التالي إلى المستشفى المذكور، ولما شاهدت الرجل عرفته من هيئته أنه سوري، وأنه مصاب بطرف من الخبل؛ إذ كان ينسل أطراف ثيابه. فكلمته بالعربية قائلًا: من أين أنت؟

فحملق الرجل بي وقال بصوت خافت: إنه يعرف لغتي.

فأدركت من لهجته أنه من جهات حاصبيا، فقلت له: أنت من جهات حاصبيا.

فأجابني وأمائر الدهشة والعجب بادية عليه: إنك تعرف بلادي.

فهدَّأت روعه وطيبت خاطره، وجلست على مقربة منه أحدثه وأسأل عما ألمَّ به. فقال: أنا فلان بن فلان من العائلة الفلانية (وهي عائلة معروفة في الوطن) وقد رهنت بيتي والقطعة الوحيدة التي لي من الأراضي؛ للذهاب إلى نيويورك. وليبقى معي المال المفروض على كل مهاجر يرغب في الدخول إلى الولايات المتحدة، وفي غضون ركوبي القطار من مرسيليا إلى الهافر سُرقت مني القيمة المفروضة. فلم أشأ العدول عن السفر، بل ظللت مواصلًا

إياه مكررًا القول: ربنا يفرجها. وعندما وصلت نيويورك لم يرضَ ربنا إفراجها إذ أركبت «بابورًا وأرجعوني إلى جوا»، فوصلت مدينة ملآنة «بوابير»، وهناك أنزلوني إلى اليابسة وتركوني. وكانت العربات والسيارات والتراموايات والحافلات تتزاحم حولي حتى «طاش راسي»، فاصطدمت بي عربة وداستني فحُملت إلى المستشفى، وبقيت فيه حتى شُفيت، ثم أركبت قطارًا آخر وأرسلوني إلى «جوا»، وصار لي على هذه الحالة ستة شهور، وهم يتقاذفونني من بلاد إلى بلاد، ومن ثغر إلى آخر.

فحررت جوابًا إلى وزارة العدلية أن الرجل سوري المسقط عثماني الجنس، وأن القنصلية ستهتم بتسفيره إلى بلاده. وأرسلت إلى قنصلنا في انفرس كي يسأل عن تاريخ سفر إحدى البواخر إلى الشرق لإرسال المهاجر إليه؛ ليهتم بإعادته إلى بلاده.

ولما كانت الجرائد المحلية قد تكلمت كثيرًا عن ذلك المهاجر المجهول؛ فقد بلغت وزارة العدلية الصحافة أن القنصل العثماني الجديد قد تمكَّن من معرفة هوية الرجل.

وبينا كنا ننتظر سفر الباخرة إلى الشرق؛ لنرسل فيها ذلك المهاجر وردني تحرير آخر من وزير العدلية البلجيكية مآله: إن جامعة المستشرقين المشهورة في ليدن ترغب في معرفة اللغة المكتوب فيها السطر الواصل طيه؛ لأنها لم تتمكن من معرفته. فلما اطَّلعت على السطر المذكور ضحكت كثيرًا؛ لأن الحروف التي كتب بها ذلك الرجل ليست حروف لغة، بل هي صور مختلفة، وبعضها يشبه الحروف السريانية أو العربية.

فحملت السطر وذهبت إلى المهاجر المذكور، وسألته أن يقصَّ عليَّ قصته فقال: كنت مريضًا في المستشفى، فجاءني بعضهم بكتاب كبيرٍ وشرع

يقلب فيه صفحة صفحة، وأنا أميٌّ لا أعرف القراءة ولا الكتابة. ولما تملكتني السآمة أعطيت ورقًا وقلمًا «فخرطشت ما طلع ببالي»، حينئذ تركت وشأني، واسترحت من ثقالتهم.

فلم أتمالك من القهقهة عندما تفكرت باجتماع أولئك العلماء الجهابذة؛ لحل رموز اللغة الشرقية الجديدة التي خرطشها المهاجر المذكور، وقد عرفت الحكومة البلجيكية من هذا السطر أن الرجل كان في روتردام، وأن هولندا قد أركبته القطار وتخلصت منه بإرساله إلى البلجيك. قرب سفر الباخرة إلى الشرق، فقطعت «الباسبورت» للمهاجر، وكان قنصلنا في انفرس قد قطع له تذكرة السفر، وهيأت له كمية من الدراهم لنفقة الطريق. ولما ذهبت لأبلغه الخبر بقرب سفره حلت بي الدهشة عندما عاينته قد سقط على قدمي ضارعًا بألا أرجعه إلى بلاده؛ لأنه يخجل من العودة إليها، بل أهتم بإرساله إلى نيويورك.

فقلت له: يا هذا أما كفاك عذابًا وشقاءً طيلة سنة تقريبًا حتى تريد مرة أخرى المهاجرة؟

فأجاب: بل أوثر ذلك على العار. فعجبت من مجالدة الشرقيين ونشاطهم، وأفهمته أن لا يجوز لنا مساعدة أحد على المهاجرة، بل على إعادة المنكوبين إلى الوطن.

ولما أرسلت في اليوم الثاني أحد مستخدمي القنصلية لمرافقة المهاجر المذكور إلى انفرس وتسليمه إلى القنصل، عاد فأخبرني أن الحكومة البلجيكية تمانع بتسليمه، فعجبت وذهبت حالًا إلى وزارة العدلية لأعرف السبب، فعلمت أن الحكومة البلجيكية مستاءة من حكومة روتردام؛ إذ أرسلت

ذلك المهاجر بالطريقة الآنفة الذكر تخلصًا منه، وأن البلجيك قد عولت على المقابلة بالمثل.

فاعترضت قائلًا: إذا كانت حكومة هولندا قد أساءت عمدًا إلى هذا الرجل؛ فلأنه لم يكن له قنصل يدافع عنه. أما الآن وقد ثبتت هويته وعُرفت جنسيته العثمانية؛ فإني لا أسمح به كي يُتقاذَف كالكرة. إلا أن ذلك لا يمنع الحكومة البلجيكية من الاعتراض على الحكومة الهولندية مع تسليم الرجل لإعادة إلى مسقط رأسه.

وبعد المخابرة مع وزارة الخارجية قررت الحكومة إجابة طلبي. وهكذا تسنى لي إعادة المهاجر المذكور إلى وطنه.

قنصليتي في الأرجنتين

مشاكلها ومتاعبها وأوزارها

لا أظن أنه توجد قنصلية في تاريخ الدول جرَّتْ على متوليها متاعب ومشاكل نظير قنصليتي في الأرجنتين. إلا أنها على الرغم من ذلك فقد امتازت عنها جميعًا بكونها كانت القنصلية الأولى والأخيرة للدولة العثمانية.

ويجدر قبل الاستفاضة بذكر الماجريات التي رافقت سير قنصلية الأرجنتين؛ أن أذكر الأسباب التي أهابت بي إلى طلب نقلي بإلحاح من قنصلية باريس العامة التي كانت تُعَد خيرًا من سفارة صغيرة، إلى قنصلية الأرجنتين وهي أقصى قنصلية كانت للدولة العثمانية.

عندما أحرز الظفر حزب تركيا الفتاة، وأعلن الدستور في شهر تموز سنة ١٩٠٨م، كنت متوليًا قنصلية جنرالية البلجيك منذ عشر سنوات. وإذ كنت من مجددي تأسيس حزب تركيا الفتاة في باريس بمعونة المواطن المرحوم خليل غانم — الذي كان عضوًا في مجلس المبعوثان على عهد عبد الحميد، والتجأ إلى باريس بعد إلغائه — وأحمد رضا بك الذي توفي مؤخرًا في الأستانة، كنت طبعًا مطلعًا على خفايا الأمور، وقد كان الاتفاق أنه بعد فوز الحزب على عبد الحميد يخلعه حالًا. فمضت الأيام وتلتها الشهور، ولم يخلع الحزب السلطان، بل اقتصر على سحب حامية قصر يلدز وإبدالها بحامية جديدة جاء بها من سالونيك بقيادة ضباط حزب الاتحاد والترقي، وقد

توهم مديرو الحزب أنهم بهذا التبديل يكونون بمأمن من غدر السلطان، ولكن يا له من وهم خاطئ وغرور خاسر!

وعبثًا كنت أكتب لهذا الزعيم أو لذاك من البلجيك مؤكدًا ألا راحة للحزب، ولا سلام ما دام عبد الحميد متسنمًا العرش؛ إذ لم يكن لكلامي سميعًا، وكنت واثقًا أنه سيفعل بنا نظير ما فعل بمدحت باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة، فإنه عندما شرط على عبد الحميد إعلان الدستور لقاء توليته العرش، قبل عبد الحميد بذلك وأعلن الدستور، إلا أنه لم يطل العهد حتى نفى مدحت باشا إلى الطائف في الحجاز؛ حيث أعدم بعدئذ خنقًا في إحدى الليالي وألغي الدستور، وأضحى كل من يتجاسر على لفظ كلمة دستور يعذب وينفى.

ولما وجدت أن عاد جميع الرفقاء من منفاهم، استقلت من قنصلية البلجيك وذهبت إلى الأستانة وكنت آخر من عاد، فوجدت الشعب لا يزال ثملًا من خمرة الظفر يطوف ليلًا ونهارًا حاملًا رسمي أنور بك ونيازي بك، ورافعًا رايات كتب عليها «يشاسون حريت»، أي فلتحي الحرية. وبعد أن تعارفت وزعماء الثورة كأنور وطلعت وجاهد وجاويد، ألفيت جلَّهم شبانًا تنقصهم السياسة والعلم. ولا أريد إطالة الشرح بهذا الموضوع؛ لأنه إذا سنحت لي الفرصة، فسأكتب تاريخ إعلان الدستور. وإنما يمكن الجزم أن تلك الثورة الدستورية لم تخلق الزعيم المطلوب شأن جميع الثورات، ولهذا لم يطل العهد حتى بدأت تظهر المنافسات والضغائن والأحقاد وسوء السياسة، فقد أغضب زعماء تركيا الفتاة اليونان التي كانت تابعة للدولة العثمانية؛ لأجل انتخاب عضو في مجلس بلدية الأستانة، وأغضبوا الأرمن من أجل مذابح أطنه، وأغضبوا العرب لإلغائهم اللغة العربية وإبدالها بالتركية.

ويليق بي بهذه المناسبة أن أشير إلى جدال عنيف وقع بيني وبين طلعت وجاهد بك ذات يوم بشأن هذا الإلغاء. وحاولت عبثًا إقناعهما أن من الخطل السياسي اتخاذ هذه الخطة مع العرب، وهم أكثر من نصف سكان المملكة العثمانية قاطبة، وقلت لهما إنه في البلجيك يوجد عنصران، الفلمنكي وله لغة خاصة به شبيهة بالألمانية، والوالوني وهو العنصر الإفرنسي ويتكلم بالفرنسية. والحكومة البلجيكية، إرضاءً للعنصرين، سمحت بكتابة جميع المعاملات الرسمية باللغتين الفلمنكية والفرنسية، وأضفت إلى قولي السابق، أن قرار ملك البلجيك بقبولي قنصلًا في بلاده، مكتوب باللغتين المذكورتين. وهكذا القول في سويسره التي سكانها مؤلفة من ثلاثة عناصر: الفرنسي والإيطالي والألماني؛ إذ لا يحق لدولة دستورية حرمان عنصر من العناصر المتألفة منها استعمال لغته الأصلية في معاملاته الرسمية.

ولما لم يقتنعا وظلا مصرَّين على رأيهما، قلت لهما: إن قرار الحزب يخالف الدستور أية مخالفة. فسألني طلعت بلهفة: وكيف ذلك؟ فأجبته: ألَا تنص المادة الثانية من الدستور على أن الديانة الرسمية للدولة هي الإسلام؟ فأجابني: بلى، تنص. فقلت: إن دعامة الإسلام هي القرآن الشريف، وهو قد أُنزل باللغة العربية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يفهم التركية.

فضحك طلعت وجاهد من هذه الحجة.

والخلاصة، لم تتصرم ستة شهور على إعلان الدستور حتى بدأ العداء يتجلى من كل حدبٍ وصوب. والذي أتى ثالثة الأثافي: انقسام الحزب على نفسه ومنافسة كل فئة الأخرى. وفي منتصف أحد الأيام قُتِل على الجسر الذي يوصل استانبول بغلطة، محرر جريدة «حريت» ولم يُعرف القاتل. وقد تفاقم الشر تفاقمًا عظيمًا حتى تأكد لديَّ أن لا بد من اندلاع ألسنة الثورة

عاجلًا أو آجلًا، وأن الطاغية عبد الحميد واقف لنا بالمرصاد يتربص السانحة المناسبة للإيقاع بنا. فعولت عندئذ على الأوبة إلى باريس ومراقبة الماجريات منها. وكنت قد كتبت بكل تفصيل إلى صديقي مورتون فولورتون، مكاتب «التيمس» الثاني في باريس أطلعه على حقيقة الحالة. فأجابني: «إن ما عرفتني عنه قد أثَّر بي تأثيرًا شديدًا، وقد أطلعت عليه وزير خارجية فرنسا المسيو بيشون، فقال إن المعلومات التي تردنا من سفارتنا في الأستانة تؤيد ما يقوله صديقك الأمير، بيد أنها لا تشير إلى قرب اندلاع نيران الثورة.»

ولم يمض أسبوعان حتى انفجرت ثورة عبد الحميد علينا. وحدث في مساء اليوم الذي سلف الثورة أن دعاني ابن عمي الأمير مصطفى المرحوم محمد الذي انتخب مبعوثًا عن بيروت، وقد اختير رئيسًا للجنة وزارة الخارجية، لتناول طعام العشاء مع عادل بك والي الأستانة ومفيد بك مبعوث ألبانيا، وهذا، كما يذكر القراء، كان باشكاتب سفارتنا في البلجيك وصديقًا حميمًا لي. أما عادل بك فكان قبل سنتين قد ذهب إلى بروكسل لمعالجة والده فيها، فوافاه الحِمام. فقدمت للابن كل مساعدة وسهلت أمامه المعاملات اللازمة، وكان يومئذ رجلًا لا شأن له بالسياسة ولا ينضم إلى حزب من الأحزاب. أما والده فكان من أرباب الثورة في سالونيك، وقد اجتمعنا للعشاء في «صالون» خاص بجوكي كلوب. وقبل أن نجلس على المائدة قلت لمحمد: هل تعرف أنني مسافر في الباخرة الألمانية الذاهبة إلى مرسيليا، ومنها سأنطلق إلى باريس؟ فقهقه محمد وقال إلى عادل ومفيد: إن ابن عمي أمين لا ينام ليلة، إلا ويهجس أن عبد الحميد قد علقه على الخشبة، فيجس عنقه صباح كل يوم ليتأكد سلامته، وأنه لا يزال في قيد الحياة.

فضحكنا جميعًا من هذه النكتة، وأجبته: «قل ما تشاء وتريد، وليضحك جيدًا من يضحك أخيرًا.» وهو مثل إفرنسي مغزاه أن سنرى ماذا ستكون العاقبة.

فسألني عادل بك: هل سفرك خوفًا أو قضاء لأشغالك؟ فأجبته: إن سفري هو حذر من أمر لا بد من وقوعه عندي عاجلًا أو آجلًا.

فسألني: وعلى أي شيء تبني هواجسك هذه؟

فقلت: هل ترى دولتك أن الأمور سارية بانتظام وسكينة؟ فأجاب: لا، وإنما ما تراه أمور عادية تقع بعد كل ثورة وعند بدء كل إصلاح، ولكنها لا تشير إلى ثورة. أنت تعلم يا صاح أن الثورات اليوم لا تقوم إلا بسواعد الجيش وهو موالٍ لنا.

قلت: إنني أشك بهذا الأمر. فضحك وضحك معه محمد ومفيد.

وبعد أخذ ورَد قال لي محمد: إذا كنت مصممًا على الذهاب إلى باريس فأرجو أن تنتظر خمسة عشر يومًا، إذ يدخل المجلس عندئذ في عطلته الصيفية، فأرافقك إلى باريس. فقلت له: إنك هازلٌ. فأجاب: أقسم لك برأس والدي. وهذا كان قسمه العظيم. فالتفت عندئذ إلى الوالي ومفيد بك، وقلت لهما: أنتما شاهدان على ما يقول.

وقد أكلنا هنيئًا وشربنا مريئًا، وتجاذبنا الأحاديث المختلفة غير عالمين ما كانت تخبئه لنا تلك الليلة من الويلات، وأن شبح الموت كان يحوم فوق هامنا، وقد انصرف كلٌّ إلى منزله، ولم أستطع النوم إلا بعد مكابدة أرق طويل. وبينا كنت نائمًا سمعت باب غرفتي يدق بعنف وصوت صاحبة البيت العجوز يقول: يا مير لقد عصفت الثورة في استانبول. فظننت لأول وهلة

أنني أهجس بالهواجس التي أضحكت محمدًا. فعدت إلى النوم فسمعت الباب يطرق بأشد عنفًا وصوتًا يدعوني، فنهضت مسرعًا فوجدت المرأة تعيد قولها. فتذكرت ما قلته بالأمس قبل ساعات، وأسرعت بلبس ثيابي وخرجت إلى شارع بيرا، فكان أول من التقيت به صديقي روحي بك الخالدي مبعوث القدس، وقد خلفني في قنصلية بوردو. فصحت به: إلى أين ذاهب يا روحي بك؟ فقال: إلى المجلس. فقلت: أرجو أن تعود إلى منزلك ولا تفارقه؛ لأن الثورة مدبَّرة على أعضاء المجلس. قلت له ذلك، وأنا مسرع الخُطى أبحث عن عربة فلم أجد. فهرولت إلى نزل «بيرا بلاس» حيث يقيم محمد، فالتقيت في الطريق بصديقي سليمان أفندي البستاني، فرجوته أن يقفل إلى منزله وأعدت له ما قلته لروحي بك. ولما وصلت النزل سألت عن محمد، فقيل لي: لقد خرج منه منذ هنيهة. فظننت أنه ذهب إلى دار المرحوم ندره بك مطران حيث كنا نجتمع يوميًّا، فلما طرقت الباب وجدت ندره قد هرول ليفتحه فسألته بلهفة: هل رأيتم محمدًا؟ فقال: قد شاء الذهاب إلى المجلس، فمنعه الحرس عبور الجسر فعاد إلى هنا، وقد ألحنا عليه كي يبقى عندنا فأبى، وقال: ربما يمكنه العبور على جسر «سلطانه والده» وهو في آخر قرن الذهب.

فوقع عليَّ هذا النبأ كالصاعقة، ثم قلت لهم: هل تذكرون كيف كنتم تضحكون مني عندما كنت أقول لكم إننا نرقص على بركان لا بد من أن ينفجر يومًا، والله وحده يعلم ما ستكون نهايتنا؟

ثم نهضت أريد اللحاق بمحمد، فحاولوا منعي عبثًا فأسرعت إلى الجسر لعبوره، فألفيت الخفر يحرسه. ولما شئت اجتيازه، قال لي الخفر: «يسق.» فرأيت إفرنجيًّا يعبره، فقلت له: ولماذا يُسمَح لهذا الإفرنجي بالعبور؟ فأجاب: «شبقلي.» أي صاحب قبعة؛ يعني أنه أوروبي، فتذكرت حينئذ أنني تركت

في باريس صندوقة برانيطي كلها. ولما رغبت في مشترى واحدة وجدت جميع المخازن مقفلة الأبواب، فعدت بخفي حنين وجلًا حذرًا إلى دار ندره بك مطران؛ حيث شرعنا نضرب أخماسًا بأسداس، وبينا نحن على هذه الحالة سمعنا صوت بائع جرائد، فلم أنتظر خروج الخادم ليشتري جريدة منه، بل أسرعت بنفسي فوجدت البائع يبيع ورقة صغيرة يقول فيها: سقط شهيدًا المرحوم الأمير محمد رسلان بك مبعوث بيروت، فلم أكد أنتهي من قراءة هذا النبأ حتى شعرت بدوار في رأسي ورجفة في رجلي، فاستندت إلى الجدار أستعيد قراءة الخبر المفجع مرارًا، والدموع تنهمر من عيني. وبعد هنيهة عدت إلى منزل ندره بك، وأعطيته الورقة المذكورة، وانطرحت على كرسي ذاهبَ القلب واهي الجلد مستكينًا إلى العبرات ومخلدًا إلى الشجون.

لقد كانت تربطني والمرحوم الأمير محمدًا عُرى صداقة متينة، وكنت أحبه كشقيق عزيز لي، على الرغم من المنافسة الشديدة التي كانت بيني وبين والده. وكان قد جاء إلى بروكسل وحل ضيفًا عندي في القنصلية، فقضينا معًا تلك الأيام التي بقيها بهناء وسرور، وكان طيب الله ثراه شهمًا كريمًا وخِلًّا وفيًّا. ولا أدري لماذا كان قلبي يحدثني بأن النيابة ستكون عليه شؤمًا ووبالًا؛ لأنه عند إعلان الدستور كان مستشار سفارتنا في بلغراد عاصمة السرب. ولما أعلمني أن قد عرض عليه ترشيح نفسه عضوًا في مجلس النواب نائبًا عن بيروت، حررت إليه ناصحًا إياه أن يرفض، وقلت له: إن الحكمة تقضي علينا الابتعاد مؤقتًا عن الأستانة، وأن لا يغرب عن باله أن الثورة كالضبع تأكل أولادها. فأجابني أن سبق السيف العذل، فقد قبل الترشيح وانتخب نائبًا. وإذ ظننت، وبعض الظن إثم، أنه ربما يسعى لوزارة الخارجية كتبت إليه: إنك صرت إلى السفارة أقرب من قاب قوسين؛ إذ لم يبقَ أمامك سوى هذه الدرجة؛ فلِمَ العجلة؟

وبينا كنت لا أزال في منزل ندره بك جاءتنا الأنباء أن قد قُتل أربعة من الوزراء، وستون ضابطًا من ضباط الجيش المنتمين إلى حزب الاتحاد والترقي، وأن الثائرين يبحثون عن زعماء الحزب نظير جاويد وطلعت وجاهد ومحمد رضا وغيرهم للفتك بهم. وكان قد شاع يومئذ أن محمدًا قد اغتيل وهمًا من قاتليه، إنه جاهد بك مع أن الشبه بين الاثنين كان بعيدًا جدًّا.

وكان خوفي الشديد أن يطرحوا جثة محمد ابن عمي مع جثث بقية القتلى. ويطول بي شرح ما لاقيته من العقبات والأهوال؛ بحثًا عن الجثمان، فأبقي ذلك إلى مذكرات «تركيا الفتاة».

وفي اليوم التالي اتفق سفر باخرة إفرنسية إلى بيروت، فاغتنمت هذه السانحة لأعيد بها إلى لبنان ابن المرحوم سعيد شقيقي الأصغر؛ إذ كنت قد عولت على الفرار من الأستانة بأقرب وقت. فصحبته إلى الباخرة، وهناك وجدت بين الجماهير المحتشدة على متنها، صديقي رحمي بك، وهو من أهم رجال الحزب وأشدهم بأسًا وجرأة، ولهذا كان الثائرون يبحثون عنه بنشاط لاغتياله، فأسرعت إليه وقلت له: ويحك يا بك، ماذا تعمل هنا؟ أتجهل أنهم يبحثون عنك «بالفتيلة والسراج» ليقتلوك؟ فقال: إني عالمٌ ذلك، ولكني أريد الفرار إلى سالونيك، ولهذا أنتظر سانحة لأصير على مقربة من القومسير، فأقطع تذكرة السفر. ولما رأيت الناس مزدحمين أمام نافذة التذاكر، قلت له: اذهب يا بك إلى غرفتك، وأنا أقطع لك التذكرة. فقال: لست وحدي، بل معي قرينتي وهي حُبلى. فأدركت عندئذ ما كان يضطرب في صدر ذلك الرجل الجبار، وأنه كان يخشى أن تُصاب قرينته بأذًى. ثم قال لي: تفضل ورافقني، فتبعته، ونزلت إلى الدرجة الأولى، وفتح باب غرفته فوجدت امرأته وحدها غائصةً في بحر من الهموم، فعرَّفني بها، وكانت قد أرْخَت حجابها، ثم مد يده إلى جيبه وتناول قبضة من الليرات، وأراد أن يعطيني إياها دون أن يعلم

مقدارها. فقلت له: عدها. فأجاب: لا والله. فقلت له: لا والله لا أقبل إلا أن تعدها. فرضي أخيرًا، ثم ذهبت إلى حيث القومسير، وانتظرت حتى جاء دوري، فطلبت تذكرتين إلى سالونيك. فقال لي: إن الباخرة لا تمر على سالونيك. فسألته: وأين تمر إذن؟ فأجاب: على أزمير. فحرت بأمري وبدا الاضطراب على وجهي، وأخذ الناس ينظرون إليَّ بعين الارتياب. فهرولت إلى الدرجة الأولى. ولما كنت قد سهوت عن أخذ رقم الغرفة، لم أجدها حالًا، وخفت إن ناديت رحمي بك بصوت عالٍ أن ألفت الأنظار إليه، وخشيت من ضياع الوقت، فصرت أقترب من باب كل غرفة أتنصت، وإذا سمعت صوتًا أدق دقًّا خفيفًا لأعرف من في تلك الغرفة، وهكذا حتى اهتديت إلى غرفة الصديق. ولما أخبرته بما توقع، صمت وأخذ يعضُّ على شاربيه مفكرًا. وعندما طال صمته قلت له بالفرنسية: هل تظن أنك ستكون بمأمن في أزمير؟ فسمعت امرأته تقول من وراء حجابها: ربما تكون الثورة قد تسعَّرت نيرانها في أزمير أيضًا. فقال هو: إن ذلك محتملٌ. وساد الصمت مرة أخرى. فقلت له: هل تريد أن أبدي لك رأيًا يريح بالك؟ اذهب رأسًا إلى بيروت، وسر إلى دارنا في لبنان، فتكون قرينتك بين زوجتي أخوي كشقيقة لهما، وتكون أنت في أمن حريز. ومن حسن الصدف أن ابن أخي مسافر في هذه الباخرة، وسأكتب معه إلى أخوي أخبرهما بذهابكم، فشكرني متأثرًا. ولما ألححت عليه قبل وقال لي: اقطع لي تذكرتين إلى أزمير، فإن وجدت الحالة خطرة أعدك أنني أنطلق إلى عندكم في لبنان، فعدت إلى الظهر، وانتظرت حتى فرغ القومسير فدنوت منه، وطلبت تذكرتي سفر إلى أزمير بالدرجة الأولى، وأن يعطيني غرفة خاصة. فسألني: باسم من؟ فبهت، ولم أتجاسر أن أذكر اسم رحمي بك. وأخيرًا قلت له: باسم أمين أرسلان وقرينته. ولما سلمني التذكرتين عدت حالًا إلى غرفة رحمي بك، وأعطيته

إياهما مع ما تبقى من الدراهم، وقلت له: لا تنسَ أن اسمك منذ الآن أمين أرسلان بك، وليس رحمي بك. فأدرك حالًا ما صنعت وضحكنا معًا، ثم تركته يتحادث وابن أخي، وذهبت إلى صالون الباخرة. وحررت مطولًا إلى أخي المرحوم فؤاد أخبره بما توقع وأوصيه؛ كي يهتم برحمي بك اهتمامًا شديدًا، ولا سيما لأن قرينته حُبلى.

ولما آذنت ساعة سفر الباخرة ودعت الصديق، ورجعت إلى منزلي مسرورًا؛ لأنه أضحى بمأمن من الاغتيال، ثم لبثت أنتظر هبوط الليل لأزور جاهد بك وجاويد بك وطلعت بك، وقد كانوا مختبئين يتحينون السوانح للفرار إلى أودسا في روسيا. ولما جنَّ الليل ذهبت إليهم متنكرًا وأخبرتهم بما توقع مع رحمي، فصاحوا وجِلين ساخطين: يا ويلاه! إنه سينزل في أزمير من غير بد. وعندئذ سيقبض عليه الوالي، ويعيده إلى الأستانة مقيدًا بالسلاسل؛ لكي «يبيض وجهه مع عبد الحميد». وبعد أن درسنا الحالة من كل وجوهها، اتفقنا أن أبرق إلى رحمي كي لا ينزل إلى اليابسة حين رسُوِّ الباخرة في ميناء أزمير. أما هم فلبسوا أردية أفرنجية وقبعات وذهبوا في تلك الليلة إلى سفارة روسيا ومنها إلى الباخرة، وعدت أنا إلى منزلي واستسلمت لهواجسي وشجوني. وفي ميعاد وصول الباخرة الفرنسية إلى مرفأ أزمير أبرقت إلى رحمي بك ما يلي:

أمين أرسلان بك، على ظهر الباخرة الإفرنسية، أزمير.

الأطباء يشيرون بإلحاح بعدم نزولكم إلى البر مع الطفل؛ نظرًا لانتشار داء الجدري. ووقعت البرقية باسم حسن.

وفي اليوم الثاني وصلتني منه برقية يفيدني بها، أن لا يوجد جُدري في المدينة ولا خطر على الطفل، وأنه نزل إلى المدينة بكل ارتياح.

وبعد مضي خمسة عشر يومًا زحف على الأستانة جيش سالونيك بقيادة المشير شوكت باشا وأنور بك ونيازي بك ورحمي بك، وبعد قتالٍ عنيف مع الجيش الذي كان السلطان عبد الحميد قد أغراه على الثورة، وسقوط عدد ليس بقليل من القتلى والجرحى من الفريقين، فاز جيش سالونيك وخُلع السلطان عبد الحميد في اليوم الثاني كما سأذكر ذلك بتفصيل في مذكرات «تركيا الفتاة».

وفي أحد الأيام بينا كنت خارجًا من مطعم طوقليتان بشارع «بيره» شعرت بيدين قد أمسكتاني من ظهري، ثم أدارتاني بعنفٍ، فرأيتني أمام رحمي بك الذي ابتدأ يقبلني مكررًا قوله: «إنني لن أنسى صنيعك معي يوم الثورة.» فقلت له: لا تُغالِ يا بك؛ فإنني لم أفعل معك شيئًا يستحق هذا الشكران. فقال لي ما معناه: عند الضيق يُعرف الصديق، ثم شرع يقصُّ عليَّ ما جرى معه مما لا مجال لذكره هنا.

ولما هدأت الأحوال نوعًا صمَّمت على العودة إلى باريس مغتنمًا انتهاء الرخصة المعطاة لي من الوزارة، إذ كنت قد قضيت عشرة أعوام في خدمة القنصلية دون أن أطلب رخصة ما.

ولم يمضِ زمن طويل على وجودي في باريس، حتى دخل عليَّ صباح يوم الخادم، وبيده جرائد باريس الصباحية. وبما أنني كنت دومًا أرغب في الاطلاع على برقيات الأستانة، شرعت أفتش عنها وأقرؤها، فدهشت عندما قرأت بإحداها خبر تعييني «قنصل جنرال» في باريس، وأعدت قراءة تلك البرقية مثنى وثلاث ورباع، حتى تحقق لي صدقها.

إن قنصلية باريس العامة التي كانت تُعَدُّ أهم من السفارات الصغيرة، كانت عندي من أسوأ القنصليات؛ لأسباب عديدة سيأتي تفصيلها في حينه، وقد زاد بي العجب لجهلي سبب هذا التعيين دون طلب سابق مني، أو على الأقل إعلامي بذلك قبل التعيين، فنهضت حالًا، وبعد أن ارتديت ثيابي توجهت إلى السفارة لمقابلة صديقي فتحي بك الذي كان قد تعين الملحق العسكري، بعد تعيين أنور بك ملحقًا لسفارتنا في باريس. إن فتحي هو عندي أنجب من أنور وأذكى، وقد أظهر توقد ذهن وحنكة في جميع الأمور التي عرضت له، سواء كانت سياسية أو حربية. وهو الذي دافع عن طرابلس الغرب عند هجوم الإيطاليين، وعهد إليه أخذ السلطان عبد الحميد، بعد خلعه، إلى سالونيك والمحافظة عليه، وهو الآن سفير الدولة التركية في لندن. فلما دخلت عليه شرع يقهقه قائلًا: إني عالم بسبب مجيئك باكرًا.

فقلت له: هل قرأت جرائد الصباح؟ فأجاب بالإيجاب. فسألته: وهل تدري سبب هذا التعيين؟ فأجاب: اجلس وهدئ روعك، واشرب معي فنجان قهوة. وبعد أن تناولنا القهوة قال: إن السبب الذي حدانا لتعيينك قنصلًا عامًّا في باريس، أن المستشار الذي تعين لسفارتنا، هو مستشار سفارتنا في واشنطون ومتولي أعمال السفارة فيها؛ لأن السفير الجديد لم يتعين بعد. ومتى تعيَّن فعلى المستشار أن ينتظره حتى يصل، ثم يذهب إلى الأستانة، ومنها يأتي إلى هنا. وهذه الأمور تستغرق شهرين أو ثلاثة. وحيث إن سفيرنا الجديد نعوم باشا قد خيَّب آمالنا التي أنطناها به؛ إذ وجدناه يصلح للوزارة وليس للسفارة، ولا سيما في عاصمة كباريس، وحيث لا يمكن تغييره حالًا، رأينا من المناسب أن نُعيِّن له رجلًا خبيرًا بباريس وشئونها، ولا سيما صحافتها؛ لأن الصحافة هي «بعبع» السفير يرتعش لدى أقل كلمة لها مساس به أو بالدولة. ومن أدرى بباريس وصحافتها منك، بعد أن أقمت فيها ردحًا طويلًا،

وعرفت رجالها معرفة شخصية، ولك أصدقاء حميمون من رجال صحافتها؟ وعليه فقد قلنا إنك أنت الرجل المطلوب، وستكون ساعد السفير ريثما يصل المستشار الجديد. وبعدئذ فإذا كانت قنصلية باريس لا تعجبك؛ فيمكنك أن تطلب النقل إلى سواها. ولا إخالك بعد هذا الإيضاح تخيب ثقتنا بك. فصمتُّ ولم أنبس ببنت شفة. فقال لي: تعال لأقدمك إلى السفير. فقلت: إنني أعرفه قبلك بزمن طويل. فسألني وكيف ذلك؟ فأجبته: إن سفيرنا نعوم باشا كان قبلًا متصرفًا على جبل لبنان، وكنت آنئذ في ريعان الشباب، لا أتجاوز الحادية والعشرين من سني، ومديرًا للغرب الأقصى، وهي أهم مديرية في جبل لبنان؛ نظرًا للأموال الأميرية التي تدفعها بسبب صحرائها الحافلة بأشجار الزيتون التي زرعها الرومان على عهد المسيح.

واتفق بعد مضي سنتين أنني رغبت في الاستقالة من مديريتي؛ لأسباب لا مجال لذكرها هنا، فكتبت «العرضحال»، وذهبت إلى دار المتصرف الخاصة في بيروت حسب العادة، إذ كنت أزوره في داره الخاصة وكان يستقبلني ببشاشة وعطف، فسألت ياور دولته كي يستأذن لي المتصرف لمقابلته. ولما عاد قال لي: إن دولته يريد أن تذهب إلى السراي في بعبدا. فقلت: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن غاية زيارتي في هذا الصباح هي تقديم استقالتي، وإليك «العرضحال». وأردت تسليمه إياه، فأبى تسلمه قائلًا: إن دولته أمرني ألا أقبل منك شيئًا. فبهتُّ وقلت: عجبًا، إن دولته خلافًا للعادة لا يتنازل لمقابلتي، ولا يريد أن أسلمك شيئًا حتى ولا «عرضحال» الاستقالة. يحق له أن يعامل المأمورين هذه المعاملة؛ لأنه رأى منهم الذل والخنوع، ثم خرجت من دار المتصرف، وذهبت إلى إدارة البرق في بيروت، وأرسلت له البرقية التالية:

دولة متصرف جبل لبنان: بيروت. إنني أقدم لدولتكم استعفائي من مديرية الغرب الأقصى، ولست منذ هذه الساعة مسئولًا عن الراحة العمومية.

وهكذا، يا عزيزي فتحي بك، كانت فاتحة علاقاتي مع دولة سفيرنا. وتصور كيف شاءت الأيام أن تجمعنا معًا مرة ثانية في باريس، وأن يكون هو رئيسي أيضًا. فضحك فتحي، وقال: ما مضى قد مضى فلنذهب للسلام عليه.

ولما دخلنا عليه أراد فتحي بك أن يقدمني إليه، فقال له: إنني أعرفه منذ زمن بعيد، ثم التفت إليَّ وصافحني قائلًا: أؤمل ألا تفارقني هذه المرة، كما فارقتني قبلًا في لبنان. فأجبته ضاحكًا: أؤمل أن الأسباب لا تعاد. ثم جلسنا وشرعنا نتجاذب أطراف الأحاديث، فأظهر سروره من تعييني، وقال إنه يعتمد عليَّ في جميع الأمور، ولا سيما في الصحافة الباريسية؛ إذ يعرف أنني كنت عضوًا في نقابتها. وكان السفير قد بدت عليه أمائر الكبر وابيضَّ شعره الذي كان يميل إلى الاحمرار، ثم سألني ألا أنتظر وصول الإرادة السنية بتعييني، بل أبدأ حالًا في إنجاز شئون وظيفتي، أو على الأقل أساعده في شئون السفارة. فوعدته أن أعود بعد الظهر، وهكذا فعلت مدة أسبوع، ثم وصلت الإرادة وتسلمت شئون القنصلية. وكانت لسوء الحظ قد نقلت مركزها إلى الطابق الأرضي من السفارة، فكنت عندما أصلها، أرى الجماهير محتشدة لقضاء أشغالهم. فلا تكاد قدماي تطآن عتبتها؛ حتى أسمع الخادم يقول: إن دولة السفير ينتظرك. وكنت كل مرة أدخل عليه أجده يسير ذهابًا وإيابًا في مكتبه الفسيح، ويداه في جيبته ينتظرني، ولا أفرغ من السلام عليه،

حتى يشير إلى مكتبه قائلًا: اقرأ هذه، ويدل على أوراق مرصوفة فوق بعضها. فكنت أقرأ كل ورقة على حدة. ولما أفرغ منها أسأله: ماذا تريد دولتكم؟ فيجيب ما قولك؟ وهكذا في كل الأمور كبيرة كانت أو صغيرة، كان يستشيرني بها. ووجدت أن فتحي بك كان مصيبًا بقوله عنه: إنه ينزعج لدى نشر أصغر مقالة ضد تركيا.

فأشرت عليه بأن نسير بموجب طريقة كليمانسو، وهي استعمال حق الجواب، إذ حسب الشريعة الإفرنسية أن كل جريدة تنشر شيئًا يمس بكرامة شخص ما؛ فيحق لذلك الشخص الممسوس الكرامة أن يرسل إلى صاحب الجريدة مقالًا يصحح به الخطأ، وإذا لم ينشره في جريدته يحكم عليه بالنشر الإرغامي ودفع غرامة. ورجوت السفير كي يتركني أجرب هذه الطريقة فسمح لي. وهكذا كنت كلما نشرت صحيفة خبرًا مختلقًا أو غير صحيح، أحرر باسم السفارة طالبًا التصحيح، فكانت الصحف تنشره. ولما رأت أن السفارة لا تصمت عن تصحيح الخطأ، صارت تتحرى الأخبار المتعلقة بتركيا وتدقق بها قبل نشرها، إذ لا يناسب مصلحتها ومركزها أن تنشر كل يوم تقريبًا تصحيحًا لأخبارها؛ لأن ذلك يسقط من مقامها وأهميتها عند القراء.

وكان نعوم باشا يُسَر من ذلك كثيرًا. وكنت عندما أنجز أشغال السفارة أنزل إلى القنصلية، فأسمع تذمر الناس العادل من طول الانتظار، فأضطر اختيارًا إلى البقاء في القنصلية حتى أنجز أشغال الجميع.

والذي زاد في مهام أشغالي، هو السماح بالخروج من الدولة العثمانية لكل من يرغب، فأقبل الناس من كل حدب وصوب إلى باريس من كبراء ووزراء. وهؤلاء كانوا يطلبون مني مرافقتهم في ذهابهم ومجيئهم، فكنت

والحالة هذه أقضي كل صباح في مصاحبتهم، وبعد الظهر أقوم بأعباء السفارة والقنصلية معًا، فلا يأتي الليل إلا وقد أنهكني التعب.

وكنت كلما شكوت أمري إلى فتحي بك، يقول ضاحكًا: صبرًا، عن قريب سيصل المستشار، فأجيبه: إن أشغال السفارة لا شيء بالنسبة إلى زيارة الوزراء والسفراء، واصطحابهم إلى كل محل.

ولم يمض شهر ونصف الشهر على هذه الحالة، حتى ضقت ذرعًا وكل غرب نشاطي، وتمنيت لو أتيحت لي الاستقالة.

وفي ذات يوم دخلت على السفير حسب العادة فوجدته مضطربًا. ولم أكد أفرغ من تحيته، حتى بادرني قائلًا: هل يصعب عليك زيارة المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقًا؟ فبهتُّ وسألته: وما المأرب من هذه الزيارة؟ فأجاب: ذهبت البارحة إلى وزارة الخارجية فأشارت عليَّ بأن يوافق زيارتك موسيو هانوتو، أو على الأقل ترك بطاقتك له. فسألته: ولماذا تريد مني وزارة الخارجية هذا الأمر؟ فأجاب: يظهر أنك عندما كنت صحفيًّا على عهد تركيا الفتاة، حملت على ذلك الرجل حملة شعواء، وانتقدته انتقادًا مرًّا. وتقول الوزارة: إن الحكومات متضامنة متكافلة؛ ولهذا يصعب عليها استحصال رخصة لي من رئيس الجمهورية، قبل أن تجري ترضية للموسيو هانوتو الوزير السابق.

فوجدت حالًا أن هذه المسألة هي خير سانحة لي للاستقالة، فقلت للسفير: إن زيارة المسيو هانوتو هي بمثابة اعتذار له، أليس كذلك؟ فصمَتَ، وبعدئذ قال: إن هذا الأمر لا يحط من قدرك على ما أرى. فأجبته: إن وضع بطاقة زيارتي في منزل رجل كبير كالمسيو هانوتو، لا يحط من قدري، ولكن زيارته للأسباب التي أشرتم إليها؛ بناءً على طلب وزير الخارجية الحالي إنما

هي بمثابة اعتذار مني عما كتبته انتقادًا لسياسته. وهذا لا أفعله مطلقًا، ثم أضفت: إنني مغتبط أي اغتباط بهذا الحادث؛ لأنه سهل لي أسباب الاستقالة التي أرغب فيها رغبةً شديدة. فقال: وكيف تريد الاستقالة، ولم يمض على وجودك سوى بضعة أسابيع؟ فأجبته: لأنني لا أشاء أن أُوجِد لدولتكم معضلةً مع وزارة الخارجية.

وبعد مناقشة طويلة قال لي: دعني أدبِّر المسألة. فاضطررت إلى القبول. ومضى أسبوعان على هذا الحادث، ولم يفاتحني السفير بهذه القضية. وفي صباح أحد الأيام دخل عليَّ الخادم، وبيده صحف باريس، فاطَّلعت بين أخبار الأستانة على برقية مآلها: إن الدولة العثمانية قد وقَّعت مع الحكومة الأرجنتينية معاهدة ودية، وستنشئ كل منهما قنصلية لها في عاصمة الأخرى. فهتفت قائلًا: هذه هي خير سانحة لي للاستقالة. وفكرت، إذا عرضت القضية على السفير، يعارض معارضة شديدة بأمر استقالتي. وأخيرًا بعد إمعان البصيرة ارتديت ثيابي، وذهبت إلى إدارة البريد، وأبرقت إلى وزير خارجيتنا طالبًا نقلي من قنصلية باريس إلى بوينس أيرس، ولبثت أنتظر الجواب دون أن أخبر السفير بشيء. ولما طال الوقت ولم أحصل على جواب، خطر ببالي عندئذ أن أطلب مساعدة صديقي رحمي بك، وكان وقتئذٍ من أهم رجال حزب الاتحاد والترقي وأرفعهم شأنًا، فأبرقت إليه مخبرًا إياه بما حدث، وطالبًا منه استخدام جميع الوسائل الفعالة لنقلي، فلم تمضِ ثلاثة أيام حتى وردتني البرقية التالية:

> غدًا ستصدر الإرادة السنية بنقلك إلى بوينس أيرس حسب طلبك، وإنا نأسف أسفًا شديدًا لبعادك عنا بعدًا قصيًّا.

وبما أن البرقية تشير إلى أن نقلي قد تم بناءً على طلبي، فلم أتجاسر أن أُطلع السفير عليها. وكنت أذهب إلى السفارة يوميًّا حسب عادتي. وفي أحد الأيام وردت إلى السفير برقية تفيده بنقلي إلى بوينس أيرس، وإخباري كي أذهب أولًا إلى الأستانة لأخذ التعليمات اللازمة. وبعد أن أظهر السفير شديد أسفه لبعادي، قال لي: ستجد في الأرجنتين كثيرين من اللبنانيين. وبعد حديث طويل عن لبنان ومناظره وسكانه وأخلاقهم، ذكَّرته بما صرح به يومًا كوبليان أفندي صهر سلفه واصه باشا، بعدما وصل لبنان؛ إذ قال: «عندما وصلنا لبنان أحنى لنا اللبنانيون ظهورهم فامتطيناها.»[١] ثم قال لي: أخبرت في الوزارة أن حدثت بينك وبين المسيو سان رينيه تالانديه مشادة عنيفة في وزارة الخارجية الفرنسية، إلا أنني لم أطلع على جميع تفصيلاتها، فهل لك أن تقصها علي؟ فقلت:

إبعادي عن باريس

تتذكرون دولتكم ولا شك المسيو سان رينيه تالانديه، الذي كان قنصل جنرال فرنسا في بيروت. لقد كانت تربطني به صداقةٌ متينة العرى، وكان دائمًا يزورني في منزلنا في الشويفات، وإذا كتب لي كان يستهلُّ مراسلاته بقوله: يا ميري العزيز. ولما تركت بيروت أصحبني بتحرير توصية إلى مدير جريدة الديبا. وبعد وصولي باريس بمدة ليست بطويلة نُقل هو أيضًا إلى وزارة الخارجية، وتعين مديرًا للأمور الشرقية. وفي صباح أحد الأيام وصلتني منه رسالة جاء فيها:

المسيو سان رينيه تالانديه يرجو الأمير أمين أرسلان أن يذهب إلى إدارة الأمور الشرقية في الوزارة الخارجية، يوم كذا عند الساعة السادسة بعد الظهر، لأمر يختص به.

فعجبت من أسلوب تحريره هذا الذي لا أزال أحفظه عندي، ولم أدرِ له سببًا. وفي الساعة المعينة توجهت إلى وزارة الخارجية، وانتظرته هنيهةً لأنه كان مع الوزير هانوتو. ولما دخلت عليه قابلني بوجه عابس، ولم يمد يده لمصافحتي، ودعاني للجلوس أمامه على مكتبه، وقال لي ما حرفيته: كلفني حضرة وزير الخارجية المسيو هانوتو أن أقول لكم: إنه إذا كان القانون يجيز للإفرنسي انتقاد حكومته؛ فلا يجوز للأجنبي الذي ما هو إلا ضيف أن يفعل كذلك. وعليه فإنني مأمور أن أبلغك أنه إذا لم تعدل عن خطتك بانتقاد فرنسا وحكومتها؛ فستضطر عندئذٍ إلى استعمال الوسائل الفعالة إلى أقصى حد.

فلما سمعت منه هذا الكلام ذُهلت، وقلت: أظن بالأمر خطأ، لأنني لم أكتب كلمة ما ضد فرنسا وحكومتها. فأجاب بحدة: ومقالتك ضد مدير البوسطة في بيروت؟

فاعترتني الدهشة، وقلت: تُرى، وهل مدير البوسطة الإفرنسي في بيروت هو فرنسا وحكومتها؟

فأجاب: إن مقالتك هي ثلب. فقلت له بنفور: إذا كان الأمر كما تقول؛ فلماذا لا يطلب محاكمتي أمام محكمة السين (باريس)؟ إنني واثق كل الثقة بعدالة المحكمة، على الرغم من أنه إفرنسي الجنس، ومأمور حكومة وأنا أجنبيٌّ. بيد أنني أؤكد لك إنه لا يتجاسر أن يفعل ما قلت؛ خوفًا من الفضيحة.

فقال: وما برهانك أنه كان يخبر سراي بيروت بأسماء الذين كنت ترسل لهم الجريدة؟ فأجبته: الوسام المجيدي الثالث الذي منحه إياه السلطان. فقال: وأنا أيضًا منحني السلطان وسامًا أعلى؛ فهل تظن أنني خُنت وظيفتي؟ فأجبته: لا أعلم ما فعلت أنت.

فاحتدم غيظًا ووقف؛ إشارةً إلى انتهاء المقابلة. ثم قال: لم يعهد إليَّ مجادلتك، بل إبلاغك أمر الوزير، فقلت له بعد أن وقفت: أخبر وزيرك أنني لست ضيفه، بل ضيف الشعب الفرنسي، وأنا أذعن لقوانينه وشرائعه، وليس لأوامر الوزير ونواهيه، ثم تناولت قبعتي، وخرجت دون أن أودِّعه.

فضحك نعوم باشا، وقال لي: يظهر أنك لا تتغير أين كنت.

فقلت: إن ذلك المدير السيء الطالع كان أطوع لوالي بيروت من بنانه، وقد رفعت أمره إلى مدير البوسطة هنا، وأخبرته أننا قد اضطررنا إلى إرسال جميع تحاريرنا وجريدتنا إلى لندن؛ لترسل من هناك إلى البوسطة الإنكليزية ببيروت. ولا يخفى على حضرتكم ما بذلك من النفقات. فأجابني ذلك المدير بكل قحة بما يلي: «داوموا على إرسال تحاريركم عن طريق لندن.» ولا يزال تحريره هذا محفوظًا بين أوراقي. ولما ضاقت بنا الحيلة، ورأينا أن السلطان قد أنعم على ذلك المدير بوسام، نشرت مقالًا انتقدته به انتقادًا شديدًا بلهجة عنيفة قصدًا؛ لأضطره عندئذٍ إلى إقامة الدعوى عليَّ، فأفضح أمره وتضطر الحكومة هنا إلى عزله أو نقله.

إلا أن الدهشة بلغت مني منتهاها بعد ساعات وجيزة مرت على هذه المقابلة، وإلى القارئ التفصيل:

كنت ساكنًا في بولفار سان جرمين رقم ٤٦، وكان يقطن في الطابق الذي تحت طابقي، أحد أعضاء مجلس النواب، وكنا نذهب معًا كل يوم تقريبًا إلى

مجلس النواب فأصعد أنا إلى مقصورة أرباب الصحف، ويذهب هو إلى كرسيه. وفي مساء ذلك اليوم بينا كنت صاعدًا إلى منزلي شاهدت نورًا في منزل النائب، فرغبت في زيارته، ولما دخلت منزله وسلمت عليه، سألني من أين قادم؟ فأجبته: من وزارة الخارجية. وقصصت عليه ما توقع. فقال لي بصوت خافت: آسف جدًّا لما جرى، وإني أنصح لك أن تخرج هذه الليلة من باريس، إذ صباح غد سيحضر إلى منزلك قومسير البوليس يحمل أمرًا بإبعادك إلى الحدود، ولا يمكنك بعدئذ العودة إلى فرنسا؛ وإلا فتكون عقوبتك السجن سنتين.

فسألته: وبأي قانون أو شريعة يتسلحون لإخراجي من باريس؟

فأجاب: لا قانون ولا شريعة تُجيز إبعادك، ولكن ذلك يجري حسب قرار نابوليون الأول الذي لا يزال معمولًا به إلى الآن، وبموجب هذا القرار الجائر، يحق لمدير البوليس أن يبعد من فرنسا كل أجنبي يرغب في إبعاده.

فقلت: وأنتم النواب الذين تناقشون الوزارة؛ لأنها نقلت مثلًا معلمًا من مدرسة إلى أخرى. ما بالكم صامتين وتسمحون بحدوث هذا الجور؟

فقال: أكرر لك ما قلته قبلًا، وهو: ما دام قرار نابوليون معمولًا به ولم يُلغَ بعد؛ فلا بد من السير بموجبه، ولا يستطيع أحد مساعدتك. هذا فضلًا عن أن جواباتك في الوزارة حرجت قضيتك عوضًا عن أن تخففها. ولهذا فإنني أشير عليك بالخروج هذه الليلة ذاتها، حتى متى جاء قومسير البوليس لا يجدك في منزلك وينقضي الأمر. أما أنت فتبقى بعيدًا عن فرنسا مدة بقاء وزارة هانوتو. ومتى سقطت، ولا بد من سقوطها قريبًا، تستطيع أن تعود متى شئت دون معارضة. ومتى سقط هانوتو لن يعود إلى الجلوس على كرسي الوزارة.

فقررت العمل حسب نصيحة النائب، وبعد أن شكرت له عطفه ونصحه، قلت: ولكنني لا أعلم إن كنت أجد قطارًا مسافرًا إلى البلجيك، أو سويسرا؛ لأنهما الأقرب إلى الحدود الفرنسية. فتناول دليل القطارات، وشرع يفتش فيه عن التي تسافر ليلًا. وأخيرًا قال لي: لم يبقَ أمامك سوى الذهاب إلى لندن. فودعته شاكرًا وصعدت إلى منزلي لأهيئ حقيبتي. ولما لم يكن معي دراهم تكفي سفري عن طريق «كاله» وهي الأقرب، اضطررت إلى الذهاب عن طريق «دياب ونيوهفن» فوصلتها نصف الليل، وكان بحر المانش في تلك الليلة مضطربًا، والأمواج ثائرة هائجة، فامتنع كثير من الركاب عن السفر خوفًا. أما أنا فركبت الباخرة مرغمًا؛ إذ كان عليَّ مغادرة الحدود الفرنسية قبل الصباح. وقد قاسيت تلك الليلة أهوالًا جسيمة لأن الأمواج كانت تتلاعب بنا وتتقاذفنا، وبديلًا عن أن نصل ساحل إنكلترا عند الصباح وصلناه عند الظهر.

ولما كان المسيو روشفور، الكاتب الفرنسي المشهور بانتقاداته القارصة، والذي كان أعدى أعداء نابوليون الثالث، هو أيضًا بعيدًا عن فرنسا، فقد ذهبت للتعرف به، فقابلني بمنتهى اللطف والبشاشة، وطلب مني أن أذهب كل يوم إلى منزله لشرب الشاي معه. وكان يقطن بقرب حديقة غناء. وهكذا قضيت بصحبته طيلة إقامتي في لندن.

وفي ذات يوم قال لي: هيئ حقيبتك واستعد للسفر، إذ غدًا ستسقط وزارة هانوتو. وهكذا كان، فسقط هذا الوزير، ولم يعد إلى الوزارة أبدًا.

فضحك نعوم باشا من هذه القصة وقال: حقًّا إنك لا تتحمل «زكزكة» قط. فقلت: إنني أتحمل «زكزكات» كثيرة، إذا كانت صادرة ممن هم دوني مقامًا،

ولكنني لا أتحمل «زكزكة» ولو صغيرة، ممن هم أعلى مني مركزًا، ثم ودعته وانصرفت.

معاهدة الدولة العثمانية مع الأرجنتين وأخذ التعليمات من الأستانة

تركت باريس ميممًا الأستانة. ولما وصلتها ذهبت في اليوم الثاني لزيارة صديقي رحمي بك، فأعلمني أن الوزارة لم تُلبِّ سؤلي؛ لاعتقادها أنني عندما أرسلت لها برقيتي كنت متكدرًا مستاءً، إذ لا أحد يصدق أن من كان قنصل جنرال في باريس التي تعد قنصليته أفضل من كثير من السفارات؛ يطلب بملء إرادته الانتقال منها؛ ليتولى مهام قنصلية جديدة للدولة العثمانية في أميركا الجنوبية بأقصى المعمورة. ولما طلب رحمي منها ذلك، أجابته أنها قد عينت لقنصلية بوينس أيرس منير ثريا بك، فألحَّ عليها بنقله إلى البرازيل وإجابة طلبي، فلم ترَ بدًّا لدى إلحاح رحمي بك من إجابة سؤلي، ونقلي إلى قنصلية الأرجنتين.

وذهبت في اليوم الثالث إلى وزارة الخارجية، فلم أتمكن من مقابلة الوزير رفعت باشا يومئذٍ، بل قابلت مدير القناصل، وكنت أعرفه شخصيًّا حين استقالتي من قنصلية البلجيك، فأطلعني على معاهدة الدولة مع الأرجنتين. وبينا كان يهتم بشئون إدارته جلست على حدة، وشرعت أدرس المعاهدة فوجدت في إحدى موادها الرئيسية غموضًا؛ لأن الأرجنتين كانت الدولة الأولى التي تخلت عن امتيازات الأجانب، فألفتُّ نظر المدير إليها، وقلت له: أخشى أن تجرَّ علينا هذه المادة مشاكل في المستقبل. فأجاب: ولماذا تريد إثارة المشاكل قبل وقوعها؟

فقلت: إنني ذاهب إلى أقصى قنصلية للدولة في المعمورة، وإنني مكلف بالاهتمام بالأمور السياسية أيضًا؛ إذ لا سفارة لنا هناك. ولهذا فلا أتمكن من مخابرة الأستانة، والجزم بالمشاكل التي تعرض لي قبل مضي شهرين أو ثلاثة، وأنا وحيد هنالك وبعيد، وجميع المسئوليات ستقع عليَّ وحدي، ولهذا أرغب الآن في تداركها قبل وقوعها. ولا تمكن المخابرة البرقية بمشكلة ما؛ لأن كل كلمة تكلف ما يقارب الريال المجيدي. ومنذ الآن أفيدك أنني لا أرضى أن أعطي شيفرة (المراسلة بالأرقام)؛ إذ قد ذقت الأمرين يوم قُطعت علائقنا مع فرنسا. فأجاب: سأعرض كل ما ذكرت على دولة الوزير. فعلمت عندئذ أنه لم يكن مسرورًا من ملاحظاتي، فلم أُلحَّ عليه.

وذهبت مساءً ذلك اليوم لزيارة الصدر الأعظم حلمي باشا بمنزله في شيشلي، وليس في الصدارة؛ نظرًا للدالة التي كانت له عنده؛ لأنه كان صديق أسرتنا يوم كان مكتوبجي في ولاية سورية، وقد حفظ لنا ودًّا وولاءً. فوجدته في دار الحرم، فأمر بدخولي حالًا. ولما مثلت بين يديه قبض على يدي بعطف وشرع، يقول لي: أوغلم أوغلم! (يا ولدي) ما الذي دعاك حتى ألححت بنقلك إلى الأرجنتين؟ فإذا وُجد مانع خاص يحول دون بقائك في قنصلية باريس التي هي أهم قنصلية لنا، فلماذا لا تطلب قنصلية لندن أو برلين أو رومية أو مدريد أو فينا حتى آثرت الذهاب إلى أقصى المعمورة؟

فأجبته: يا صاحب الفخامة، إن لنا جالية كبيرة العدد في الأرجنتين، وهي منذ سنين تطلب بإلحاحٍ قنصليةً، ولي وطيد الأمل أن أقدِّم خدمة لها وللدولة.

فلم يقتنع فخامته بذلك، وظن غير ذلك. ولما ودعته قال لي مازحًا: متى أرسلت تقريرك الرسمي السنوي عن جاليتنا هنالك؛ فأرسل نسخة خصوصية لي.

ولما قابلت في اليوم الثاني وزير الخارجية رفعت باشا، بقيت مدة عشر دقائق في أثناء تلك الزيارة على أحرِّ من الجمر؛ بسبب الحادث التالي:

عندما دخلت عليه وجدت عنده زائرًا صديقي القديم نابي بك، مستشار سفارتنا في باريس، الذي كان قد رُقِّي إلى سفير في رومية. ولما رغب الوزير في تعريفه بي قال له: إنه صديق قديم لي. وأظن دولتكم لا تعرفون أنه هو بطل قطع العلائق مع فرنسا. فسأله الوزير: وكيف ذلك؟ فأجابه: هو الذي أخذ على نفسه مسئولية نشر المخابرات السياسية. فسألني الوزير: أهذا أنت؟ لقد كنت وقتئذ مستشار سفارتنا في بطرسبرج، وأذكر أن كان لنشرها وقع حسن. وكان رفعت باشا قد اقترن بروسية، وهي ابنة الجنرال راننكنف الذي اشتهر ببدء الحرب العالمية، وزحف على ألمانيا الشمالية.

وقبل أن يبدأ بإعطائي التعليمات التي استدعاني لأجلها؛ أخذ رزمة من الأوراق كانت مرصوفة على الجهة الشمالية من مكتبه، وشرع يقلبها الواحدة تلو الأخرى. وكان على رأس كل طلحية أسماء السفراء والقناصل بحرف كبير، فعرفت أن كل طلحية من هذه الأوراق مكتوبٌ عليها اسم كل منهم وتاريخ ولادته، والوظائف التي أُنيطت به. وفي العمود الأخير مكتوب بحرف كبير: ملاحظات. وكان عمود الملاحظات بأكثر هذه الطلاحي فارغًا. ولما عثر على صحيفتي وجدت أن قد كتب عليها بحرف صغير وبحبر أحمر كلمة، ثم تاريخ على كل سطر، فعرفت حالًا أن توجد ملاحظة على تلك وظيفة عهدت إلي، ولكني لم أتمكن من قراءة تلك الكلمة المخطوطة لصغرها، وقد أقلقت أفكاري.

وبعد أن قرأها الوزير وضعها فوق الرزمة، ثم التفت إليَّ، وسألني: متى اعتمدت على السفر لتسلم وظيفتك؟ فأجبت: بعد غدٍ، وإنني أغتنم هذه

الفرصة؛ لأطلب من دولتكم رخصة بالذهاب إلى حمامات فيشي؛ لأنني مصاب بالكبد. وقيل لي: إن مناخ بوينس أيرس رطب صيفًا وشتاءً.

فقال لي: لا بأس عندي من تلبية مطلبك، إلا أن جلالة السلطان قد منح رئيس جمهورية الأرجنتين الوسام المجيدي الأول المرصَّع، ويجب أن تقدمه له من قبل جلالته.

فأجبت: إذا أردتم دولتكم فيتسلم هذا الوسام القونشلير، إذ في نيتي ركوب الباخرة من ليشبونه؛ لأنني زرت جميع ممالك أوبا ما عدا روسيا وأسبانيا، وأرغب رغبة شديدة في السياحة بأسبانيا؛ لأن العرب ظلوا فيها طيلة ثمانية أجيال تقريبًا، وأقام فيها أيضًا بعض من أسلافي.

فسألني: في أي عهد من الخلفاء؟ فأجبته في عهد الخليفة المعتضد.

فقال لي: إنها زيارة لازمة، ثم أضاف: لا إخالني محتاجًا إلى إعطائك التعليمات اللازمة لإنشاء القنصلية الجديدة؛ لأنك أنشأت قنصليتنا في بوردو وبروكسل. فأجبته: نعم، لقد كان ذلك من حظِّي. ثم قال: لا أنكر أن في بدء إنشاء القنصليات تقع مشاكل ومعضلات. فقاطعه نابي بك بما معناه: هو على «قد الحملة». فأجاب الوزير: بما أنه لا سفارة لنا في الأرجنتين؛ فستقوم أنت أيضًا بالأمور السياسية، ولا أظن العهد يطول حتى تنشأ لنا سفارة في تلك الجمهورية، تكون أنت منشئها إن شاء الله. فشكرت له عطفه ولطفه.

وبينما كان الوزير يكلمني موجهًا نظره إليَّ تارةً، وإلى نابي بك الذي كان عن يمينه طورًا، كنت أنا أحاول قراءة ما كُتب على صحيفتي بخط أحمر في عمود الملاحظات. ولما لم أتمكن من ذلك اغتنمت فرصة لفت بها الوزير وجهه نحو نابي بك، فأدنيت نظري إلى الصحيفة يدفعني إلى عملي هذا عامل القلق، واتفق أن أدار الوزير بغتةً وجهه نحوي. فلما رآني على

تلك الحالة ضحك، وقال: أنا أعلم ما الذي يقلق بالك. ثم تناول الصحيفة ودفعها إليَّ قائلًا: اقرأ أنك قد استعفيت من جميع الوظائف التي عهدت إليك بلا استثناء. ولما قرأت ما كُتب على الصحيفة وجدت حقًّا ما قاله الوزير. فلم أتمالك من الضحك. وسمعت نابي بك يقول: إن حضرة قنصلنا الجنرال معروف عندنا أنه لا يحمل «زكزكة» ولا منا ... فأغلق عليَّ الجواب.

وقد شئت اغتنام الفرصة لمفاتحة الوزير بذلك البند المشئوم في المعاهدة، لولا دخول الحاجب معلنًا زيارة سفير إنكلترا. فنهض الوزير مودعًا داعيًا لي بسلامة الوصول والنجاح في مهمتي. فخرجت وقلبي يحدثني أن ذلك الغموض في البند سيسبب لي مشاكل ومتاعب.

السفر إلى الأرجنتين

عندما عدت إلى باريس، كان جلُّ اهتمامي زيارة قنصل الأرجنتين؛ لأستعلم منه عن كيفية المعيشة في بوينس أيرس. فلما ذهبت عنده وسلمت خادمه بطاقتي أسرع بنفسه، واستقبلني على الباب، وبعد أن دخلنا بَهْوَ منزله هنأني بتعييني قنصلًا في بلاده، وأفادني عما سألته عنه بكل تفصيل.

وقد فهمت من تعليماته أن أثمان الأشياء والإيجار والنفقة في بوينس أيرس تزيد ثلاثة أو أربعة أضعاف عنها في باريس، فكان على الوزارة قبل تخصيصها قيمة مصروف قنصليتي أن تفعل نظيري؛ إذ عندما استأجرت دارًا للقنصلية في عاصمة الأرجنتين تليق نوعًا ما، كنت أضطر أن أدفع من جيبي الخاصة ما يقرب من المائة ريالًا شهريًّا.

وقد اخترت أولًا باخرة إنكليزية لسفري إلى الأرجنتين بعد عودتي من «فيشي». غير أنني عدلت عنها عندما علمت من بواب النزل أن قد جاء بعض من مواطني، وسألوه عن ميعاد سفري، وفي أية باخرة سأسافر. فأجابهم بما يعرف، ففهمت عندئذ أن هذين السؤالين موجهان من مواطني في بوينس أيرس ليحتفلوا بوصولي. ولما كنت غير ميالٍ إلى الاحتفالات والتظاهرات وسماع الخطب الرنانة والقصائد الرائعة ترحيبًا ومديحًا، عزمت على تغيير الباخرة سرًّا، فاكتريت مقصورة في الباخرة الفرنسية «شيلي»، ولم أخبر بذلك أحدًا واهمًا أنني سأصل بوينس أيرس دون أن يدري بي أحد.

وقد حدث بأثناء إقامتي في حمامات فيشي حادث أرغب في تدوينه للفائدة، وهو: بينا كنت ذات ليلة جالسًا في بهو النزل الكبير، وكان من عداد الجلاس ليلتئذ اللورد روسيري رئيس وزارة إنكلترا سابقًا، والغراندوق بول عم القيصر الروسي، والجنرال ليوتي العميد السامي الفرنسي في مراكش؛ إذ دخل قنصل جنرال إنكلترا في انفرس بالبلجيك، وكان صديقًا لي. فلما شاهدني اعترته الدهشة والرعشة معًا، فوقف على بضع خطوات مني ينظر إليَّ، غير مصدق نظره، فعرفت سبب ذلك، وقلت له: أنا هو ولا أزال حيًّا. فتقدم مني مترددًا ولم يهدأ روعه إلا بعد هنيهة. وسبب ذلك، أنه عندما قُتل المرحوم محمد ابن عمي مصطفى في خلال الثورة التي نشبت بالأستانة كما تقدمت الإشارة، نقلت الأسلاك البرقية طبعًا ذلك الخبر ناشرة أن الأمير أرسلان أحد زعماء «تركيا الفتاة» قد سقط قتيلًا أمام البرلمان. ولما كانت صحف أوروبا لا تعرف من عيلتي سواي من حزب تركيا الفتاة؛ أيقنت أنني أنا هو القتيل، ونشر أكثرها سيرة حياتي مؤبنًا إياي تأبينًا حسنًا. ومن النادر أن يتسنى لأحد معرفة ما ستقوله الجرائد عنه بعد موته. وكان زميلي قنصل جنرال إنكلترا واثقًا طبعًا أنني أنا القتيل، فعندما دخل صالون النزل،

ووجدني جالسًا على مائدة توهمني روحي قد ظهرت بعد الموت، وهذا كان سبب جزعه ودهشته.

وبعد عودتي إلى باريس ركبت القطار إلى إسبانيا، ويمكنني القول إن العرب الذين مدنوا إسبانيا وأوروبا معًا طيلة ملكهم، لا يزالون يغدقون على الأسبان من نعم آثارهم؛ إذ لا شيء في إسبانيا يستحق الزيارة إلا ما خلفه العرب من الآثار والمباني كجامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة، وإشبيلية وطوليدو. فمتحف الرسوم في مدريد مثلًا لا يوازي عظمة وفنًّا متحف لندن أو باريس. وكنائس إسبانيا لا تضاهي عظمتها عظمة الكنائس الإيطالية والفرنسية. وألوف السياح الذين يؤمون إسبانيا كل سنة لا يؤمونها إلا لمشاهدة آثار مدنية العرب. ففي غرناطة مثلًا أن نظام الري الذي يعمل به الآن هو النظام ذاته الذي وضعه العرب.

لا حاجة هنا إلى إطالة البحث في عظمة تلك الآثار الشهيرة وجمالها؛ لأن كثيرين من الكتاب والسياح قد أفاضوا بوصفهم، ولم يبقوا زيادة لمستزيد فلأتابع كلامي في سفرتي إلى الأرجنتين.

كنت قد وضعت خطة لسفري هكذا: الذهاب من مدريد إلى قرطبة، فغرناطة، فأشبيلية. ومنها أذهب رأسًا إلى ليسبون اقتصادًا من الوقت والنفقة، بديلًا عن أن أعود إلى مدريد لأركب القطار إلى ليسبون.

وفي صباح أحد الأيام شرعت أفحص عن مواعيد سفر القُطر من إشبيلية إلى ليسبون؛ فتعذَّر عليَّ فهم مواقيتها، فسألت ترجمان النزل كي يفيدني عن الساعة تمامًا فأجابني بابتسام: لا يوجد قطار إلى ليسبون. فقلت له بغيظ: وكيف لا يوجد قطار، وقد دفعت ثمن التذكرة؟ فأجاب ضاحكًا: ومع ذلك فلا يوجد قطار يسافر إلى ليسبون. فاغتظت من قحة هذا الرجل، ودخلت على

مدير النزل شاكيًا، فأجابني بكل لطف: نعم لا يوجد قطار. ولا شك تجهل أن شبَّت نهار أمس ثورةٌ هائلة في ليسبون، فاز بها الثوار فقفز الملك ووالدته، وأعلنت الجمهورية، وانقطعت المواصلات القُطرية بين أسبانيا والبرتغال.

فوقع عليَّ ذلك النبأ كالصاعقة، إذ لم يبقَ بإمكاني العودة إلى مدريد لإمتطاء باخرتي إلى الأرجنتين؛ لأنها ستسافر في ذلك اليوم. وكنت قد أرسلت جميع أمتعتي إليها لتوضع في حجرتي، هذا فضلًا عن أنني لم آخذ معي من الدراهم إلا ما قدرت أنه يكفيني لرحلتي في إسبانيا. فأصبحت والحالة هذه في تلك البلاد الغريبة بلا مال ولا أمتعة. ولم يبقَ بوسعي الوصول إلى الأرجنتين لتسلم وظيفتي في الوقت المعين.

وبعد إنعام الفكرة قلت: عليَّ قبل كل شيء أن أحصل على الدراهم اللازمة لكل طارئ، ثم أخبر الوزارة بما حدث، فأبرقت إلى سفيرنا في مدريد سراي بك أطلب منه الإفادة عمَّا يمكن عمله، وهل بالوسع طلب جواز مرور من الثوار لدخول البرتغال؟ فأجابني ناصحًا بالانتظار. وقد خجلت منه؛ لأنه كان من رفقائي في باريس. ولما كنت في مدريد لم أذهب إلى السفارة للسلام عليه؛ هربًا من المجاملات والدعوات، ولأنني كنت مستعجلًا. ثم أبرقت إلى مصرف «كريدي ليونه» في باريس، وكان فاتحًا لي «كريدتو» كي يرسل لي تلغرافيًّا خمسة آلف فرنك لنفقات سفري. وكان المصرف المذكور قد أصحبني بتحرير كريدتو إلى مصرف لانسيون في بوينس أيرس. وبهذه الوسيلة تسنت لي العودة إلى مدريد. وبقيت طيلة نهاري أبحث بواسطة شركة «كوك» عن طريقة أتمكن بها من الوصول إلى ليسبون لركوب الباخرة. وأخيرًا أفادتني الشركة بإمكان ذلك. ولكنني لا أذكر الآن كيف وعن أي طريق، وإنني سأصرف على الطريق أربعًا وعشرين ساعة، فرضيت بذلك وامتطيت القطار. ولما جنَّ الليل وجدت نفسي وحيدًا

في القاطرة من الدرجة الأولى، وقد استولى عليَّ الجوع والعطش، وبما أنني كنت أجهل يومئذ اللغة الإسبانية فقد تعذَّر عليَّ الوصول إلى ما أبتغي. والذي أتى ضغثًا على أبالة هو انطفاء نور غرفتي بغتةً، فأمسيت في ظلمة دامسة. والخلاصة أن رحلتي تلك كانت من أشأم الرحلات. وبعد أن قضيت على الطريق يومًا كاملًا؛ وصلت ليسبون فوجدت المحطة خالية من الحمَّالين فاضطررت أن أحمل حقائبي. ولحسن الحظ كان نزل «أفانيدا بلاس» بجوار المحطة، ولما دخلته ألفيت أكثر زجاج النوافذ محطمًا من رصاص الثوار.

ولم أكد أضع حقائبي في الغرفة التي أُعدت لي، حتى هرولت إلى إدارة شركة البواخر الإفرنسية أسأل عن ميعاد وصول الباخرة. وليتصور القارئ عظم استيائي عندما أجابني المدير أن الباخرة لا ترسو في ليسبون بسبب الثورة؛ إذ بعد أن قضيت نهارين وثلاث ليالٍ أنزل من قطار إلى قطار وأترك بلدة للنزول في أخرى؛ سعيًا وراء الوصول إلى الباخرة، فلما وصلت الثغر؛ قيل لي: إنها لا ترسو فيه بسبب الثورة.

فرقدت تلك الليلة في غرفتي بذلك النزل الفخم، والأرياح تخفق فيه بسبب تكسر زجاجه، وقد صممت العودة إلى باريس في قطار الإكسبرس. وكانت صحف باريس قد أرسلت بعض محرريها إلى ليسبون بسبب الثورة للوقوف على حقيقة الحالة ووصفها، ولحسن الحظ نزلوا حيث أنا نازل، وهكذا قضينا ليلتنا بالسمر.

وبعد ظهر اليوم التالي، جاءني مدير الشركة يقول: إن الباخرة قد وصلت وستقف بعيدًا عن الثغر لإنزال بريدها، فعجل بركوب زورق إليها، فهرولت مسرعًا. وهكذا تسنى لي امتطاء الباخرة بعد أن عانيت في هذا السبيل ما عانيت. ولم تلبث أن شرعت تمخر عباب اليم الهائج إلى الأرجنتين. وحينئذ

بدأت أسائل نفسي: ماذا يا ترى قدر لي في هذه الرحلة؟ وبينا كنت مستسلمًا لأعِنَّة أفكاري، وقد آذنت الشمس بالمغيب، وإذ شاهدت يختًا يمر بالقرب منا قاصدًا ثغر ليسبون، فأخذني العجب إذ لم أجد فيه راكبًا حتى، ولا علمًا يدل على هويته حسب القوانين. ولما صوبت إليه نظارتي، قرأت على جانبه «الملكة أماليا» ففهمت أن ذلك اليخت هو يخت الملك الفار، وهو باسم والدته الملكة أماليا، وعليه قد تمكّن الملك ووالدته من الهرب. ولما كان القبطان يجهل ألوان العلم الجمهوري، اضطر إلى دخول الثغر دون علم.

وقد تفضل قبطان الباخرة ودعاني للأكل على مائدته، وقد شاهدت بين الركب قنصل فرنسا في سان باولو، وكولونيلًا في الجيش الفرنسي، ورئيس البعثة العسكرية. واتفق أن ذلك القبطان كان من الكتبة، وقد ألَّف روايات عدة، الأمر الذي أدى إلى توطيد العلائق بيني وبينه، وكان يدعوني مرارًا إلى غرفته لتبادل الآراء.

ولما وصلنا ميناء ريو دي جانيرو باكرًا بعث من يوقظني لمشاهدة جماله وعظمته. وعندما نزلنا إلى اليابسة اكتريت سيارة، واستصحبت معي قوتشلير الباخرة للنزهة. ولما عدنا من التنزه سألت السائق عن الأجرة، فطلب مني ألف ريس، فقلت له: أنا لا أسألك عن ثمن السيارة، بل عن أجرتها، فضحك القومسير قائلًا: هنا يحسبون دائمًا بالألوف والقيمة التي طلبها هي ثلاثون فرنكًا.

ولما آذنت ساعة السفر كان قد عرف بوجودي بعض المواطنين، فتلطفوا وزاروني مبدين أسفهم؛ لجهلهم وجودي في الباخرة إلا متأخرًا، مما دلَّني على أن الكرم العربي لا يفارق أبناء وطني أين وجدوا.

وشد ما كنت دهشتي عند وصول الباخرة ثغر سانطوس، إذ وجدت كثيرين من مواطني في سان باولو وبمقدمتهم الأديب شكري أفندي الخوري صاحب جريدة «أبو الهول»، وقد عانوا مشقة السفر لتحيتي. وألقى شكري أفندي خطابًا وجيزًا مفعمًا بالعواطف الكريمة، ثم دعوني للنزول إلى اليابسة، فذهبت مع رهط وافر من المواطنين نشاهد المدينة وضواحيها، وتناولنا الطعام معًا في أحد المتنزهات. وخلاصة القول: لقد قضيت ذلك النهار مسرورًا جذلًا برفقة مواطني الكرام، خصوصًا؛ لأن تلك النزهة كانت خلوًا من الرسميات.

وكنت قد تعرفت طبعًا بأكثر الركاب، من عدادهم عم وزير الزراعة في الأرجنتين، فاغتنمت الفرصة واستعلمت منه عن قوانين الزراعة والمهاجرة وغير ذلك.

لقد كانت فاتحة أعمال قنصليتي سيئة؛ إذ قرأ ركاب الباخرة الأرجنتينيون بريو دي جانيرو في صحف بوينس أيرس خبر مناقشة جرت في مجلس الشيوخ بشأن السوريين [٢] وأن أحد الأعضاء من ذوي الأهمية، وهو الدكتور «لاينس» مدير جريدة «الدياريو»، قد طلب من الحكومة منع دخول السوريين إلى البلاد؛ لأنهم بائعو سلع، وقد ملئوا الشوارع بسلعهم وغير ذلك من الانتقاد الجارح، وأن عضوًا آخر من أعضاء المجلس ومن أهم رجال البلاد اسمه الدكتور خواكيم غونسالس قد دافع عن السوريين دفاعًا مجيدًا، فطلبت من أحدهم أن يترجم لي تلك المناقشة، وصممت أن تكون زيارتي الأولى للدكتور غونسالس لأشكره على دفاعه عن مواطني.

وعندما وصلت مونتفيدايو دهشت دهشًا عظيمًا؛ إذ وجدت أن قد جاء وفد من أبناء الجالية في بوينس أيرس لملاقاتي من قِبل لجنة انتخبها مواطني؛

للاحتفال بالقنصل الأول.

ولما أقبلت الباخرة على ميناء بوينس أيرس أمر ربان الباخرة برفع العلم العثماني على الساري الأعلى. وقد وجدت على المرفأ جمعًا غفيرًا من المواطنين يزيد عددهم على عشرة آلاف نسمة، ومعه جوقتان من الموسيقى. والأغرب أن رئيس البلدية قد سمح بذهاب موسيقى العاصمة إلى الميناء أيضًا.

وبعد أن اضطررت إلى ارتجال عدة خطب جوابًا على خطب الخطباء وقصائد الشعراء، نزلت إلى اليابسة، فحصل تزاحم شديد عسَّرَ على رجال البوليس حفظ النظام وتفرقة الجماهير. فقلت في نفسي: لقد بذلت ما بوسعي ليكون مجيئي إلى بوينس أيرس سرًّا دون أن يدري بي أحد؛ كيلا تقام لي احتفالات وتجري تظاهرات، فانظري الآن إلى وقوع ما حاذرت منه، وتأملي فيما أسفرت عنه تحوطاتك.

وإثر وصولي إلى عاصمة الأرجنتين أبرقت إلى وزارتنا علمًا بوصولي، وكتبت إلى وزير الخارجية الأرجنتينية أخبره بذلك، وأفيده أن جلالة السلطان قد كلفني أن أقدم لحضرة رئيس الجمهورية الوسام المجيدي الأول المرصع، وأطلب تعيين ميعاد تقديمه. فوردني منه جواب يفيدني أن الرئيس يستقبلني الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي.

ولما كان الحضور في الأجل المضروب واجبًا في المقابلات الرسمية والسياسية، والتأخر يُعد إثمًا لا يغتفر، عوَّلت على أن أكون هنالك في الوقت المعين. وعندما كادت ساعة المقابلة تأزف وجدت أن القوتشلير الذي عليه مرافقتي وحمل الوسام لم يأتِ بعد. فاستأت أي استياء، واضطررت إلى انتظاره على أحرَّ من الجمر. وأدركت «قلة حظي» في تعيين ذلك المساعد

الذي لم أعرفه إلا بعد وصوله. إن جميع موظفي الأتراك الذين عرفتهم كانوا من ذوي الفهم وأرباب الذكاء. أما هذا الموظف فكان خاليًا منهما، وزد على ذلك أنه لم يكن يحسن الكتابة لا بالتركية ولا بالإفرنسية اللغتين الرسميتين. فكنت أضطر أن أملي عليه ما تحتاج إليه القنصلية من الرسائل، وهكذا بديلًا عن أن يكون مساعدًا لي أصبح عالة علي.

ولما طال انتظاري للقوتشلير، ولم يحضر عزمت على الذهاب وحدي، بيدَ أنني لم أكَدْ أتهيأ لركوب العربة إلا حضر حضرته، فأركبته معي. ووصلنا لحسن الحظ وزارة الخارجية بالوقت المعين. فصعدنا إلى مكتب رئيس الجمهورية الدكتور «ساينس بينيا» يتقدمنا مقدم السفراء. ولما فتح الباب وجدت الرئيس ينتظرني في نصف القاعة، فقدمني إليه رئيس التشريفات، وبعد أن صافحني قدمت له القوتشلير. وكنت قد هيأت بالإفرنسية خطابًا وجيزًا استظهرته مآله: أن مولاي السلطان الأعظم، بمناسبة معاهدة الصداقة والتجارة مع الجمهورية الأرجنتينية التي وقعتموها فخامتكم مدة سفارتكم في رومية، قد شرفني أن أكون أول ممثل له أمام حكومتكم، وأن أقدم لفخامتكم وسام المجيدي من الدرجة الأولى مرصعًا، عربونًا على فاتحة عهد الصداقة بين الحكومتين، ولي الثقة التامة أن حكومتكم تسهل لي القيام بمهام وظيفتي، إلى غير ذلك. وقدمت له الوسام فأخذه شاكرًا، وشرع يجيب على خطابي، وسرعان ما استحوذت عليَّ الدهشة عندما سمعته يتكلم بالإسبانية، ولم أكن يومئذٍ أفهم شيئًا منها. وجل ما فهمت كلمات شبيهة بالفرنسية أدركت منها أنه ذكر اسم عيلتي، وأنها عريقة بالنسب، وكرر مرارًا اسم تركيا الفتاة. والعجب أن مقدِّم السفراء بعد أن قدمني للرئيس انسحب بلباقة، ولم يكن حاضرًا تلك المقابلة إلا نحن الثلاثة. وبما أنه كان يطلب مني أن أقدم تقريرًا إلى وزراتنا أصف به بتفصيل تلك المقابلة،

شرعت أسائل نفسي كيف يمكنني فعل ذلك، وأنا لم أفهم خطاب الرئيس الطويل.

وبعد أن فرغ من كلامه قدمت له تحرير السلطان الذي كان مكتوبًا باللغة التركية طبعًا، واحتفظت بترجمته في جيبتي.

وبعد أن خرجت من هذه المقابلة، كنت موقنًا أن الرئيس سيطلب مني ترجمة تحرير السلطان؛ ليتسنى له الجواب عليه.

وقد تحقق يقيني؛ إذ لم يمض يومان حتى جاء سكرتير الرئيس الخاص يطلب ترجمة التحرير؛ لأنه لم يوجد في الوزارة من يعرف التركية. فسحبت أحد أدراج مكتبي وناولته الترجمة قائلًا له: لقد كانت في جيبتي ساعة المقابلة، ولم أشأ تقديمها، لأنه من أخبر حضرة الرئيس أنني أفهم الإسبانية حتى خاطبني بها؟ إنني لم أدرك ما فاه به حضرته لأبعثه إلى وزارتي.

فضحك السكرتير قائلًا: إذًا لقد كان عملك انتقامًا. فصمتُّ وضحك. فقلت: أرجو أن تلتمس من حضرة الرئيس كي يملي عليك صفوة ما قاله، فوعدني خيرًا. وعاد بعد يومين مع الخطاب، وقال لي: إن حضرة الرئيس قد سُرَّ كثيرًا من كيفية انتقامي منه.

وقد أدت هذه الحادثة إلى عطف الرئيس عليَّ، مما يدل على أنه كان كبير النفس شريف الأخلاق.

ثم شرعت برد الزيارات الرسمية للوزراء وكبار متوظفي الحكومة. وحدثت بيني وبين وزير الزراعة يومئذ الدكتور لوبوس مناظرة عنيفة، وإلى القارئ صفوتها:

رافقني في هذه الزيارة الدكتور غلياردو حاكم الريو نيغرو وقتئذٍ؛ إذ تفضل أن يكون الترجمان بينه وبيني. وبعد مبادلة التحيات المألوفة قال الوزير: أغتنم هذه الفرصة كي أصرح لحضرتك أن المهاجرين الذين يأتون من بلاد الدولة العثمانية ليسوا من المرغوب فيهم؛ لأننا نريد عمالًا يفلحون ويغرسون، وليسوا بائعي «كشه» يملئون الأزقة بسلعهم. فكان هذا الانتقاد الجارح الصدمة الثانية لمهمتي؛ إذ كانت الأولى مناقشة مجلس الشيوخ بشأن الجالية التي كنت أول ممثل لها. وقد احمرَّ وجه الدكتور غلياردو خجلًا وأحجم عن الترجمة. أما أنا فقد كنت فهمت الكثير من كلامه. وبعد أن زالت دهشتي من هذه المفاتحة؛ قلت: قد فهمت ما فاه به حضرة الوزير؛ ولهذا أرجو أن تنقل له جوابي بالحرف: نعم من الأسف أن يكون القسم الأوفر من مواطني بائعي سلع، ولكن ذلك ليس ذنبهم، بل ذنب قانون الاستعمار الذي سنته حكومتكم.

فسأل الوزير بدهشة: وكيف ذلك؟ فأجبته: إن القانون ينص على أن من يريد أن يحصل على قطعة أرض لاستعمارها؛ فعليه أن يبني فيها بيتًا، ويزرع عشر هكتاريات، ويشتري أدوات زراعة وحيوانات وحبوبًا؛ بما لا تقل قيمته عن عشرة آلاف ريال. هذا فضلًا عن معاملات عديدة شاقة طويلة الأمد كثيرة الأكلاف، وعن الوسطاء والسماسرة الذين يسلبونه آخر درهم معه. فالعثماني الذي يملك في بلاده هذه القيمة المطلوبة، أو أقل منها لا يهاجر. فإذا شاءت الحكومة استثمار العمال وتعمير الأراضي البور؛ فعليها بالتفتيش عن العمال العثمانيين واستخدامهم؛ لأن العامل الأوربي لا يضاهي العامل العثماني قوةً ونشاطًا. هذا فضلًا على أنه ندر جدًا وجود سكيرين وسلابين ومجرمين بين العمال العثمانيين، وهم لا يضربون عن العمل كما

يضرب الأوربيون. ويتصفون بصفات حميدة وفضائل حسنة لا تجتمع بأيٍّ كان من المهاجرين الأوربيين.

فبهت الوزير من هذا الجواب، وبعد أن تفكر قليلًا قال: وما هي الوسيلة التي تجعلهم يرغبون في استعمار الأراضي؟ فأجبته: إن خير وسيلة بنظري هي إعطاؤهم الأرض مجانًا، وتسهيل مشترى أدوات الزراعة على وعدات طويلة، والاتفاق مع أحد المخازن ليسلفهم ما يحتاجون إليه من الطعام والثياب، ثم استبقاء ما له عندهم من ثمرة أتعابهم على سنين معدودة. إنكم إذا سهلتم أمامهم هذه الأمور؛ فأنا الكفيل أنهم سيتحولون إلى الزراعة، وتستفيد البلاد منهم فائدة جُلَّى.

فأحجم الوزير عن الجواب، ثم قال لي بعد هنيهة: أراك مصيبًا بعض الإصابة برأيك هذا. وبعد أن اعتذر عن ملاحظته التي أبداها لي بشأن الهجرة العثمانية، انتهت المقابلة على صداقة.

وقد عوَّلت على القضاء على تلك «الكشة» التي كانت سبب حملة الحكومة والصحافة والرأي العام على المهاجرين العثمانيين. ولهذا عندما قابلت الدكتور خواكيم انشورينا رئيس البلدية، رجوته أن يساعدني بمنع البيع «بالكشة»، فقال لي: إن الدستور يحول في سبيل بغيتي هذه؛ لأنه يقول صراحةً بحرية التجارة. فقلت: لكل قانون «برمة ولفتة» كما يقولون؛ فلماذا لا تقتدي بالرسوم الجمركية؟ فإن الحكومات بديلًا عن أن تصرِّح بعدم رضاها عن دخول بضاعة ما إلى بلادها، تفرض عليها رسمًا باهظًا يحول دون دخولها.

فقال: لا بأس إذًا؛ فسنضاعف إجازة البيع «باطنطا». فقلت ولماذا لا تجعلونها أربعة أضعاف مثلًا؟ قال: يصعب زيادتها هذه الزيادة الكبيرة دفعة

واحدة. إلا أننا سنضاعفها هذه السنة، ثم نضاعفها السنة القادمة؛ فتصبح باهظة كما ترغبون، وهكذا كان. وعلى الرغم من أنني لم أبُحْ لأحد بعملي هذا؛ فقد عرف التجار الذين كانوا يستفيدون من بائعي «الكشة»، واغتاظوا غيظًا شديدًا.

وبعدئذ رغبت في الوقوف على حالة أبناء الجالية التجارية، فحررت إلى المصارف الكبيرة أسألها؛ كي تفيدني بتحفظ وتكتم عن حالتها التجارية، فأجابتني جميعها، وقد علمت أن بنك لانسيون وحده كان يرسل شهريًّا تحاويل إلى الدولة العثمانية، أي إلى سورية ولبنان، بما يقارب المليون من الفرنكات. ثم كتبت إلى رئيس الشرطة أطلب منه كي يخبرني عن درجة الإجرام التي يرتكبها العثمانيون بالنسبة إلى سائر المهاجرين، فوردني منه جواب يقول: إنها كانت أقلها. مما أثبت قولي السابق لوزير الزراعة، ثم سألت الشركات التي لها علاقة بهم، فأجابتني جوابات حسنة. كل هذه الاستعلامات كانت واجبة للاطلاع على أحوال الجالية؛ كي أتمكن من الدفاع عنها عند كل تحامل أو انتقاد.

الدكتور خواكيم غونسالس

إن هذا الرجل العظيم الذي فقدته الأمة الأرجنتينية، وقال عنه مؤبِّنوه: إنه سيكون بمنزلة «سرمينتو» في المستقبل، والذي تولى وزارة الداخلية على عهد رئيسين للجمهورية، ووزارة الخارجية في إبَّان الأزمة السياسية مع تشيلي. إن هذا المتشرع الكبير كان الصديق الوحيد للجالية العثمانية، وهو وحده الذي دافع عنها في مجلس الشيوخ دفاعًا مجيدًا. ومع ذلك فهو الوحيد الذي غمطت الجالية حقه، ولم تقدر صداقته وخدماته لها. لا بل فإن مواطنينا

في لاريوخا، حيث ولد الفقيد، كانوا يعاكسونه في الانتخابات. وبينا نرى الجالية تكرم هذا وتحتفل بذاك، وتضع الصفائح النحاسية والأكاليل على قبر ذلك، لا نراها اهتمت بإحياء ذكرى صديقها الحقيقي الذي ناضل عنها في ساعة الضيق، عندما لم تكن شيئًا يذكر، ولم يكن لها مقام ينظر. والأغرب أن بعض المُحتفَى بهم قد وافق على منع الهجرة السورية، ومع ذلك فهو بنظر الجالية جدير بكل حفاوة.

لقد قلت سابقًا: إنني عندما عرفت في الباخرة عن دفاع الدكتور غونسالس عن الجالية، صممت على زيارته شكرًا له. وهكذا كان؛ فقد قصدته في منزله الخاص، فوجدت أن ذلك الرجل العظيم لم يكن عنده بهو خاص بالاستقبال، بل ثلاث غرف كبيرة حافلة بالكتب. وكان لحسن الحظ يحسن الإفرنسية، فلم أحتج إلى مترجم، وقد أكرم وفادتي وأظهر نحوي كل عطف ومودة. ولم تمضِ بضع دقائق على زيارتي، حتى أصبحنا كأننا صديقان منذ عهد طويل. ولما أخبرته بمأرب الزيارة، قال: إنني لم أعمل إلا ما أوحاه ضميري ومعتقدي. إن الرأي العام الأرجنتيني مخطئ باعتقاده أن العثمانيين لا يصلحون إلا لبيع السلع في الأزقة. فقصصت عليه ما دار بيني وبين وزير الزراعة، فاستصوب رأيي وقال: أؤمل ألا يطول العهد على وجودك بيننا، حتى تتبدل الأفكار بشأن الجالية العثمانية.

وبعدئذ شرعنا نتجاذب أطراف الأحاديث بمواضيع أخرى فقال لي: لقد قرأت أنك كنت قنصلًا جنرالًا في بروكسل العاصمة البلجيكية؟ فأجبته: نعم، وقد لبثت فيها عشر سنوات تمامًا. فقال: يوجد فيها عالم قانوني متشرع شهير، هو بنظري أعظم متشرعي أوروبا الآن. وبما أنني أستاذ علم حقوق الدول في جامعة «لا بلانا» التي أنا رئيسها، وألقي على تلامذتي دروس ذلك العالم؛ فهل يسعدني الحظ يا ترى بالتعرف عليه؟

فأجبته: يوجد في البلجيك ثلاثة من علماء الشرع الشهيرين؛ فإلى أي منهم تشير، يا حضرة الدكتور؟ فقال: إلى العلامة أرنست نيس.

فضحكت، وقلت له: إنه أعزُّ صديق لي في البلجيك، وكنت أتناول الطعام معه على مائدة واحدة ظهر كل يوم تقريبًا.

فأبرقت أسرَّته، وأخذ يسألني بتلهف عما أعلمه عنه. وبعد أن كلمته عنه طويلًا، قال: إذًا لي عندك ملتمسٌ أرجو أن تنيلني إيَّاه، وهو أن تكتب له ليحضر إلى هذه البلاد كي يلقي على تلامذتي بعض محاضرات يختار هو مواضيعها. وإني قابل سلفًا بكل ما يطلب ويشترط. فقلت له: آسف، يا حضرة الدكتور، أن أفيدك أن الرجل غريب الأطوار، لا يهمه مال ولا جاه. وهو لا يخرج من مكتبته إلا لإلقاء دروسه، ثم إلى رئاسة المحكمة الحقوقية. حتى إن ملك البلجيك نفسه لم يتمكن من أن يجعله يقبل دعوته على الأكل معه. ولم تطأ رجلاه أبدًا عتبة قصر الملك في الاحتفالات الرسمية، مع أن الملك كان يستدعيه مرارًا؛ لاستشارته في أمر خلافه مع إنكلترا بخصوص الكونغو.

إلا أن الدكتور غونسالس ألحَّ عليَّ بإرسال تحرير له، فوعدته بذلك، وحررت لصديقي العلامة فوردتني منه رسالة يعتذر فيها عن عدم قبوله الدعوة بدروسه وتأليفه. وكان صداقتي للعلامة نيس سببًا لتوطيد العلاقة مع الدكتور غنوسالس.

وبعد برهة نشرت جريدة لا برنسا مقالًا من العلامة كلارتي الكاتب الفرنسي الشهير، وأحد أعضاء المجمع العلمي، ورد فيه كثير من الثناء عليَّ. فتفضل الدكتور غونسالس بإرسال ذلك المقال لي مترجمًا بيده. فكانت صداقتي لهذين العلامتين بمثابة شهادة امتياز لي عند الدكتور غونسالس. وقد توطدت

أواصر الصداقة بيننا فكنا نذهب مرتين كل أسبوع للتنزه معًا في العربة. وفي ذات يوم قال لي: قد رأيت ليلة أمس منامًا جميلًا، وهو أنك جئت إلى جامعة لا بلانا وألقيت محاضرة على تلامذتي عن صديقك العلامة نيس، فضحكت من براعة مطلبه، وأجبته أن منامك أيها الصديق سهل تحقيقه، ولكنك تعلم أنه لا يمكنني الخطابة بالإسبانية. فأجاب: إن جميع تلامذتي يفهمون الإفرنسية. فلم أر بدًّا من الامتثال وتلبية الطلب.

المتاعب والمشاكل

مضى على وصولي عشرون يومًا ولم تصلني من الأستانة الأوراق الرسمية كالباسبورتات والسجلات وأوراق «التمغة» وغيرها. أما الجالية فقد ملَّت الانتظار وضاق ذرعها؛ فإنها وقد انتظرت ثلاثين سنة حتى أنشئت لها قنصلية لم تُطِق الصبر ثلاثة أسابيع ريثما تصل تلك الأوراق. فلما وصلت وبدأنا بالعمل وجدت صعوبة جديدة لا مثيل لها في القنصليات الأوربية، وهي تغيير الأسماء، والإفرنج يعيرون أهمية عظيمة على كتابة الأسماء؛ إذ تغيير حرف واحد يستلزم تقديم عرض طويل عريض لتصحيحه.

فوجدت مثلًا أن من كان اسمه عبد الله سمي نفسه سلفادور، ومن كان يُدعى نجيبًا صار يدعى خوانًا، والذي يدعى أحمد أسمَى ذاته ترسيسو، وهلمَّ جرا. وكان إذا وقع لأحد هؤلاء المواطنين مشكل شرعي، يرسله متوظفو المحكمة ليأخذ شهادة من القنصلية فيأتي يطلبها. وبما أنه لا يجوز إعطاء الشهادة المطلوبة دون إبراز وثائق رسمية أو شهادات، كنا نطلب منه ذلك. فإذا تعذر عليه إبراز الوثائق الرسمية، كان يقول لنا «ابعثوا اسألوا عني.

وعبثًا كنا نحاول إفهامه أن على الطالب أن يحضر شهوده إلى القنصلية، وليس على القنصلية أن تذهب لتسأل شهوده في منازلهم.

ولما كان يحضر إلى القنصلية لا أقل من خمسين شخصًا كل يوم للمعاملات العادية، وكنا نبذل الجهد لإنجازها في اليوم نفسه، على الرغم من الوقت الطويل التي تحتاجه، فليتصور القارئ إذًا مقدار المتاعب التي كنا نتحملها لإنجازها وإنجاز إعطاء الشهادات لطلابها، مع ما تقتضيه كل شهادة من الوقت والمعاملة.

وقد بذلت جهدي لتسهيل معاملات المواطنين، حسب الإمكان. وتوفيرًا للنفقات أشرت بالعمل بموجب مادة قديمة في قانون القنصليات، وهي إعطاء شهادة التابعية كي يسهل على حاملها إتمام أشغاله، سواءً في المصارف أو في الدوائر الرسمية أو في إدارات البرق والبريد. إلا أن البعض، نكايةً في الترجمان الأول الذي عينته للقنصلية؛ شرع يناهض هاته الفكرة؛ متذرعًا بالقول إن لبنان مستقلٌّ، وإن على اللبنانيين الرفض أن يكونوا من التبعة العثمانية. وإن مسألة التابعية هي من مخترعات حكومة تركيا الفتاة الجديدة. وعبثًا كنت أقنع هؤلاء المتعنتين، وأطلعهم على قانون القنصلية الذي كان مطبوعًا منذ خمس وعشرين سنة، وأقول لهم إن سائر القناصل يعطون شهادة التابعية، ولم يعترض أحد من اللبنانيين على ذلك؛ فإنهم أظهروا عدم الاقتناع؛ لأن معارضتهم كانت حبًّا للنكاية ليس إلا. ولسوء الحظ إن معظمنا لا يقدم على القيام بعمل ما عن إخلاص ونزاهة، بل إما عن غاية ونكاية، وإما مسايرة وتحزبًا.

والذي أتى ضغثًا على ابالة، ورود أمر من الوزارة العثمانية مآله: إن جميع المعاملات القنصلية يجب أن تكون إما باللغة التركية وإما باللغة الفرنسية.

ولا يخفى ما بذلك من الصعوبة والنفقات؛ لأن كل ورقة يجب أن تترجم إلى إحدى هاتين اللغتين. ولما كنت أعلم أن هذا الأمر سيقع وقعًا سيئًا على الجالية، كتمته عن الجميع، وحررت إلى وزير الخارجية تحريرًا خصوصيًّا أعرض له أن يصعب تنفيذ أمر الوزارة بهذا الصدد؛ لأن التسعة والتسعين في المائة من المهاجرين العثمانيين هم من السوريين واللبنانيين، وهم لا يعرفون إلا الأسبانية والعربية. وإنني مستعد لإجراء المعاملات بأربع اللغات المذكورة؛ تسهيلًا على مواطنينا وتوفيرًا للنفقات الباهظة التي تتطلبها. وسأعمل بذلك ريثما يرد أمر من دولته يحظر عليَّ ذلك. فلم يجبني حضرة الوزير على تحريري هذا، وهكذا ظللت أجري المعاملات باللغات الأربع.

قانون المهاجرة ومعاهدات الإرث وتسليم المجرمين

إن أهم أمر وجدته حين تسلمي قنصلية الأرجنتين، هو وجوب وضع نظام للمهاجرة أسوة بالدول الأوربية. فحررت بذلك إلى وزير الخارجية مبينًا لها أهمية ذلك القانون، إذ يوجد نصف مليون من العثمانيين المهاجرين في أمريكا الشمالية والجنوبية وأفريقية. وشد ما كانت دهشتي عندما وصلني جواب من الوزير، يقول فيه: حيث إنكم أعلم الجميع في هذه المسألة، فضعوا قانونًا بهذا الصدد لعرضه على مجلس النواب.

وقد جاء أمر الوزير هذا بليةً على بلية، إذ لم يكفني تراكم أشغال القنصلية السياسية والإدارية عليَّ حتى جاءني هذا الشغل فوق حملي الثقيل، فاضطررت أن أزور زميلي قنصلي إسبانيا وإيطاليا؛ طالبًا من كل منهما نظام المهاجرة عند حكومته ومبادلة الآراء معهما بهذا الشأن. وبعد أن درست الموضوع درسًا دقيقًا من جميع وجوهه، مستنيرًا بنور قانوني

المهاجرة الإسبانية والإيطالية؛ وضعت قانونًا خلته مناسبًا لأبناء وطني. بَيْد أنني قبل أن أرسله إلى الوزارة؛ أحببت أن أستشير أبناء الجالية بشأنه؛ ليكون أقرب إلى الكمال المنشود، ولكي لا يتهمني أحد بالاستبداد في الرأي، فعربته ونشرته في الصحف العربية التي تصدر في عاصمة الأرجنتين، طالبًا من القراء أن يرسلوا لي ما يبدو لهم من الملاحظات عليه لأدرسها، فلم يتفضل أحد من المائة ألف مهاجر عثماني في الأرجنتين بكتابة ملاحظة لي عنه. فقلت في نفسي: إذا عمل بموجب هذا القانون وظهر فيه خلل أو نقص، تنهال عليَّ عندئذٍ الانتقادات والملاحظات والتهكمات.

ثم شرعت أدرس مع مستشار وزارة الخارجية الأرجنتينية مشروع معاهدة تسليم المجرمين، فطلبت منه منع المهاجرين من تغيير أسمائهم؛ إذ يصعب حينئذ عليَّ وعلى الحكومة البحث عن مجرم من بلاد الدولة العثمانية يلتجئ إلى الأرجنتين، ويتستر باسم آخر. وبهذه المناسبة أذكر الحادثة التالية للتفكهة:

جاء القنصلية في صباح أحد الأيام مواطن تبدو على محيَّاه سيماء الغضب والتهيج، وطلب مقابلتي رأسًا دون ترجمان ولا قونشلير، فأذنت له. وكنت تعودت منذ عهد قنصليتي في بلجيكا أن أقابل الناس وجهًا لوجه؛ إذ قد اتفق أن نوتيًّا يوناني الجنس عثماني التبعة أراد اغتيال قنصلنا في انفرس، بينا كان يوقع إمضاءه على ورقة، وقد أدار ظهره إلى النوتي. وفي الوقت نفسه اغتال أحد عملة الإيطاليين قنصله في مرسيليا. وبما أن القناصل مضطرون لاستماع شكاوى جميع تابعيهم من أية طبقة كانوا ولو معتوهين؛ كنت كما قلت سابقًا أقابل من يرغب من مقابلتي وجهًا لوجه، واضعًا فوق مكتبي مسدسًا من جنس «سميث ووطس» محشوًّا، فإذا وجدته متهيجًا ثائرًا كنت أفرغ أمامه المسدس، ثم أعيد حشوه وأكرر تلك العملية ريثما يهدأ

ثائره، وتعود إليه سكينته. وهكذا فعلت مع ذلك الرجل. فلما سألته ما يريد، قال: إن فلانًا من قريتي قد سرق لي امرأتي واسمي. فقلت في نفسي: إن الرجل فاقد رشده، ثم أعدت السؤال عليه: وكيف يمكن ذلك؟ فامرأتك ليست سلعة لتسرق، فلا شك أنها قد ذهبت معه بملء اختيارها. أما اسمك فلا يستطيع أحد سلبه منك، لا هي ولا هو. فقال: بلى، إن امرأتي كلما أرادت مساكنة أحد تطلب منه أن يتسمى باسمي، وهي في كل شهر تقريبًا تساكن رجلًا، وكل من تساكنهم يحمل اسمي. فلم أتمالك من الضحك من دهاء المرأة والحيلة التي التجأت إليها. فقلت له: ما اسمك هنا؟ فأجاب: عندما وصلت هذه البلاد سميت نفسي سلفادور. فسألته: وما اسمك الحقيقي؟ فقال: فلان. فقلت: إذًا قد استعرت لك اسمًا أرجنتينيًّا؟ أجاب: نعم. فسألته: وهل اتخذت باسمك الجديد براءة من الحكومة لتمنع أيًّا كان من التسمي به؟ فأجاب سلبًا. فقلت له: إن جلَّ ما يمكنني عمله هو الطلب من الحكومة؛ كي تعيد لك امرأتك المسروقة. فأجاب ساخطًا: لا، لا. إنني لا أشاء في إرجاعها إلى بيتي؛ لأنها كيت وكيت. وخرج غاضبًا لأنني لم أعد له اسمه المسروق.

وبينما كنت أواجه كل يوم مشكلة من المشاكل الجمة التي وقعت في أثناء قنصليتي في الأرجنتين؛ تسعرت نيران الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب. وكنت أتسلم كل يوم تقريبًا عدة برقيات تفيد نشوب قتال وخصام بين العملة العثمانيين والإيطاليين في الأرجنتين. وكان يتفق مرارًا أن ألتقي بسفير إيطاليا في وزارة الخارجية، فكان كل منا يشكو الآخر بأن شعبه هو المعتدي.

ولم يكفنا هذا، بل جاءنا النائب الإيطالي السنيور رومولو موري من إيطاليا؛ ليلقي محاضرات بشأن هذه الحرب، وعقبه الصحافي الإفرنسي المشهور «جان كارير».

وحبًّا للإيجاز أكتفي بترجمة التحارير التي تُبُودلت في هذا العهد بيني وبين رئيس الشرطة يومئذ الجنرال «دلا بياني»، والتقرير الذي أرسلته إلى عاصم بك وزير خارجيتنا:

٤ تموز ١٩١٢م

حضرة الجنرال دلا بياني، رئيس بوليس بونس أيرس

أعلنت جرائد اليوم أن النائب الإيطالي رومولو موري سيلقي يوم السبت القادم محاضرة في البوليتيامه عن الحرب في طرابلس الغرب.

أسأل سعادتكم عما إذا كنت رخصتم له بإلقائها، وأرجو أن تكون اتخذتم الاحتياجات من أنه لا يمس عواطف العثمانيين.

اقبل يا حضرة الجنرال فائق الاحترام.

جواب

تموز ١٩١٢/٨م

حضرة قنصل الدولة العثمانية العام، بونس أيرس

سرني تلقي تذكرتكم الكريمة رقم «٤» الجاري، التي بها تستدعون اهتمامي لمحاضرة النائب الإيطالي رومولو موري المتعلقة «بإيطاليا والحرب». ويسرني أيضًا أن أذكر لسعادتكم كون الخطيب قد تداركته البوليسية، وأبلغته مقدمًا ألا يتفوه قط بكلمة تمس شعائر الأمة التي

تمثلونها سعادتكم بكل لباقة، والتي تحافظ الأرجنتين على ولائها وحسن العلاقات معها.

وبناءً على تصريح السنيور موري بأنه لا يتعرَّض قط لشعائر الجالية العثمانية سُمح له بإلقاء المحاضرة، وقد حافظ فيها تمام المحافظة على تعهده، ولم يجد البوليس وجهًا لمنعه.

أغتنم هذه الفرصة لأحيي سعادتكم بكل احترام.

الإمضاء

دلا بياني

رسالة شكر

عدد ٢٥٠

بونس أيرس ١٠ تموز ١٩١٢م

حضرة الجنرال

أتشرف بأن أعلن لكم كوني تلقيت مذكرة سعادتكم رقيم «٨» الجاري المتعلقة بمحاضرة السنيور رومولو موري.

أرجو من حضرتكم أن تتقبلوا خالص تشكراتي للتحوطات التي اتخذتموها؛ لكي لا تمسَّ عواطف العثمانيين المقيمين في هذه الجمهورية.

اقبل يا حضرة الجنرال فائق احترامي الداعي.

الإمضاء

أمين أرسلان

تقرير للوزارة الخارجية

بونس أيرس ١ تموز ١٩١٢م

صاحب العطوفة عاصم بك، وزير الخارجية، أستانة

عطوفة الوزير

أتشرف بأن أعرض لعطوفتكم أن النائب الإيطالي رمولولو موري قدم هذه العاصمة لإلقاء محاضرة في مرسح كبير موضوعها «الحرب العثمانية الإيطالية»، فتحوطت للأمر وبذلت المساعي مع مدير البوليس حضرة الجنرال دلا بياني، مبينًا له ما يمكن حدوثه من جرَّاء محاضرة كهذه بين الجاليتين العثمانية والإيطالية المنتشرتين في هذه الجمهورية، وعدد الأولى منها ١٠٠.٠٠٠، والثانية خمسمائة ألف.

للحال أعلمني حضرة الجنرال أنه أخذ كل التدابير اللازمة لمنع الخطيب من مساس الشعائر الوطنية العثمانية، وأنه عهد إلى قومسير بحضور المحاضرة وتوقيفها إذا بدت فيها مخالفة.

وفي الواقع أن المحاضرة أُلقيت دون أن يذكر الخطيب كلمة تركيا، وقد أيد لي هذا أيضًا بعض من بعثت بهم لحضورها وإبلاغي ما يجري.

مع هذه العريضة قصاصة من جريدة «الأرجنتينا» فيها إيضاح للأمر، ونسخة من صك جواب رئيس البوليس مترجمة.

يعلنون قرب وصول جان كارير الصحافي الفرنسوي المعروف بمعاداته لنا، وفي عزمه إلقاء محاضرات عن الحرب.

بما أني صديق لحضرة وزير فرنسا في بونس أيرس الموسيو فوك ده بارك، رجوت منه أن يُفهم الموسيو كارير الخفة التي ارتكبها بعمله، والنتيجة السيئة التي قد تناله إذا تابع بكلامه خطته العدائية التي اختطها بقلمه، وسأوقف عطوفتكم على ما يكون من هذا الشأن.

تقبل يا عطوفة الوزير ... إلخ

الإمضاء

أمين أرسلان

بشأن جان كارير

لعطوفة عاصم بك، وزير خارجية الأستانة

عدد ٢٦٤

آب ١٩١٢م

حضرة الوزير

أتشرف بأن أعرض لعطوفتكم أن الصحافي الفرنسوي جان كارير الذي ذكرت لكم عنه في تقريري رقم ١١ تموز الفائت، عدد ٢٤٩ قد وصل هذه العاصمة منذ يومين، وسيباشر قريبًا إلقاء محاضراته.

كنت في مستشفى كاريدين أستشفي من عملية جراحية مؤلمة عُملت لي في هذا المستشفى، وذات صباح بدأت بمطالعة الصحف، فقرأت

عزم جان كارير على المجيء لإلقاء محاضرات في «الحرب الإيطالية في طرابلس»، ولم يفتني أنه مأجور للإيطاليين ليتغنى بمجدهم وشجاعة جنودهم، فعزمت على بذل المساعي مع وزارة الخارجية. ولكن قبل أن أحرر لحضرة الوزير قدم لعيادتي المسيو فوك ده بارك سفير فرنسا، وهو ممن لي شرف صداقته فاغتنمت الفرصة لمفاوضته أولًا، وحمله على إقناع كارير بالعدول عن عزمه، فصرفت من كان في غرفتي واختليت بالسفير، وأطلعته على برقية من باريس معلنة خروج كارير منها إلى هذه العاصمة، وصرَّحت له بأن مهمته قد تكون خطرًا عليه، إذا كان ينوي أن يردد خطابة ما تحامل به في رسائله على العثمانيين والجيش العثماني، يوم كان يكاتب السلطان من طرابلس. فإن العثمانيين هنا لا يصبرون قط على مس عواطفهم الوطنية ولا يرضون بأن يتهجم عليهم رجل يعتبرونه مأجورًا من عدوهم. وإن كارير الذي لم يستطع حمايته في طرابلس نفسها أربعون ألف جندي إيطالي من خنجر أحد الأهالي المتحمسين لشرفهم الوطني؛ فمن الصعب أن يكون هنا محميًّا أفضل من حمايته هناك. وغير بعيد أن يتم أحد العثمانيين هنا ما بدأ به الطرابلسي، فتكون العاقبة وخيمة عليه. ورجوت من المسيو فوك ده بارك أن يفاوض سفير إيطاليا في هذا الشأن؛ لأني لا أستطيع مفاوضته بسبب انقطاع العلاقات بين الدولتين. وقد صدق السفير على قولي، ووعدني بمفاوضة السفير الإيطالي.

مضت الأيام ونحن بانتظار كارير؛ لنعلم ما يكون من أمره. وفي هذه الأثناء جعلت أبحث مع أكبر مشترعي البلاد علنًا، نجد مادة من القانون تُخول القوة الإجرائية حق منعه من إلقاء المحاضرات. وبعد

التدقيق وجدنا أن منعه غير ممكن لمخالفته قانون البلاد الأساسي، ولكن هذا لم يثنني على طلب ترضية أدبية.

علمت أن كارير سيلقي محاضراته في «تياترو كولون» مرسح البلدية الرسمي، وأن الجالية الإيطالية ستتظاهر بملاقاته، وتطوف به الشوارع، فجعلت همي الحصول على ثلاثة مطالب:

(١) عدم السماح له بالخطابة في مرسح البلدية الرسمي.

(٢) أن يمنع البوليس الإيطاليين من التظاهر في الأسواق.

(٣) أن يحظر على الخطيب التفوه بما يمسُّ العثمانيين، وشرف الجيش العثماني.

وبعد مفاوضات مع حضرة وزير الخارجية وناظر الشرطة ورئيس البلدية، تمكنت من الحصول على المطالب الثلاثة بتمامها.

مع هذا التقرير قصاصات من الجرائد توضح كيفية استقبال المسيو كارير، وكيف أن البوليس حظره قبل نزوله من الباخرة إلى لزوم الاحتشام في كل ما يقول عن العثمانيين، وكيف أن مفوضًا مخصوصًا من قبل ناظر الشرطة نبَّهه إلى ألا يمس شرف الجيش العثماني في محاضراته، وأن المسيو كارير بعد هذا صرح لجميع من قابله من الصحافيين بإعجابه بشجاعة جنودنا ... إلخ

تقبل يا حضرة الوزير ... إلخ

الإمضاء

أمين أرسلان

تعريب قطعة مما نشرته جريدة «لانسيون» بعد مشافهة مع كارير:

المحرر: سألنا المسيو كارير عما إذا كان حقيقةً قد زاره مأمور من البوليس، وحظر عليه قول ما يمس الحكومة والشعب العثماني.

كارير: نعم هذا حقيقي؛ فقد جاءني موظف كبير مندوبًا من قبل ناظر البوليس، وحظر علي ما قلتم، وزاد عليه أني إذا خالفت التنبيه يمنعون محاضراتي حالًا.

المحرر: وبماذا جاوبتموه؟

كارير: أعطيت للمأمور كل الضمانات اللازمة، على أني لا أقول قط ما يجرح وطنية العثمانيين، أو يمس شرف جيشهم، وأني بعكس ذلك معجب بشجاعة جنودهم البسل وتفانيهم ... إلخ

عزم الحكومة الأرجنتينية على قطع علائقها مع الدولة العثمانية

بينما كنت أعاني الأمرَّيْن من جراء المشاكل والمصاعب التي وقعت لي، وقد سردت بعضها فيما تقدم؛ وإذ جاءني ضغثًا على إبالة عزم الحكومة الأرجنتينية على قطع علائقها مع الدولة العثمانية. وخيفةً من التطويل وملل القارئ، أقتصر على تعريب الرسالة السرية التي أرسلتها إلى وزير خارجيتنا بهذا الصدد، فيفهم منها ما توقع تفصيلًا.

قنصلاتو الدولة العثمانية العامة

بوينس أيرس ٢٦ تموز سنة ١٩١٢م

سري

إلى عطوفة عاصم بك وزير خارجية الأستانة

حضرة الوزير

لي الشرف أن أحيط عطوفتكم علمًا بأنني توجهت صباح هذا النهار إلى وزارة الخارجية الأرجنتينية؛ للتداول مع مستشار العدلية فيها بشأن معاهدة الإرث؛ إذ لا يخفى على عطوفتكم أننا لم نتمكن إلى الآن من الاتفاق على نصها، لأنني أرى بها غبنًا على الورثة العثمانيين، إذ جلُّ ما يرثونه يذهب بهذه المعاهدة إلى مجلس إدارة التعليم هنا. وقد كنت آمل الوصول إلى اتفاق يرضي الفريقين، بعد أن تمَّ الاتفاق على معاهدة «تسليم المجرمين» التي يهمنا أمرها أكثر من الأرجنتين.

لقد أنهيت أيضًا مشروع المهاجرة لعرضه على مجلس النواب، وسأستصحب هذه المعاهدات حين عودتي إلى الأستانة بالرخصة؛ إذ أرغب في عرض بعض الأمور على عطوفتكم قبل تقديمها. وفي البحث مع عطوفتكم في أمر تعيين القناصل الفخريين في عواصم الولايات هنا؛ إذ وجدت صوبات جمة أريد عرضها على عطوفتكم قبل تعيينهم.

عندما دخلت على سكرتير الوزارة بدهني بقوله: إن الوزير قد وقع أمرًا يلغي به المعاهدة الودادية التي أمضيت منذ سنتين في رومية، ويترتب عليه إلغاء قنصلية الأرجنتين في الأستانة وقنصليتي في بوينس

أيرس. فذهلت لدى سماعي هذا الخبر وطلبت مقابلة الوزير فأذن لي، فعرضت عليه ما أخبرنيه السكرتير فأيده، وقال: منذ زمن طويل تصلني شكاوى من قنصلنا العام في الأستانة، مآلها أن حكومتكم لا تهتم به، وأنه كلما طلب مقابلة الوزارة يجد صعوبات جمة، وأن وزارتكم رفضت الاعتراف بولاية قنصليته على جميع أقطار الدولة. وعليه فبناءً على هذه الشكاوى المتكررة، قد قررنا وضع حد لها بإلغاء المعاهدة الولائية.

وبما أنني لم أكن مطلعًا على شيء من ذلك اكتفيت بالجواب التالي:

«إنني أستغرب جدًّا يا حضرة الوزير ما تفضلتم بإبلاغه لي، إذ تسلمت منذ يومين بريد الأستانة، ووصلني من وزيري تعليمات عدة ليس فيها أدنى إشارة إلى القضية التي عرضتموها. وعليه فلا أستطيع الإجابة عنها رسميًّا. وجميع ما أقوله هو منِّي شخصيًّا دون أن أربط حكومتي بشيءٍ في المستقبل. إنني أظن لا بل أثق كل الثقة أن حضرة ممثلكم في الأستانة الدكتور بوزر قد سها عن باله أننا لا نتمكن من الاعتراف بولاية قنصليته على جميع أقطار الدولة؛ لأن ذلك يضطرنا إلى الاعتراف بذلك لسائر الدول كبيرة كانت أو صغيرة. فلفرنسا وإنكلترا مثلًا قناصل جنرالية في الأستانة وأزمير وسورية والقدس وبغداد ... إلخ. فإذا منحنا هذا الامتياز لقنصلكم؛ فعلينا أن نمنحه لبقية الدول.»

فأجابني الوزير: ولكنا نحن قد وقَّعنا معاهدة خاصة لم توقعها بقية الدول التي تذكرونها. ونحن أول دولة تنازلت عن الامتيازات الدولية، ويبرهن لكم على ذلك أن براءتكم تقول بأنكم قد عينتم قنصلًا جنرالًا

على بوينس أيرس، ومع ذلك فقد سمحنا لكم أن تكون ولاية قنصليتكم على جميع الأرجنتين، ونعاملكم معاملة سفير، لا بل إن السفراء هنا يسمونكم الولد المدلل في الوزارة.

فشكرت دولة الوزير شكرًا جمًّا على الالتفات الخاص؛ معترفًا بأنني لم ألقَ منذ وصولي إلى الأرجنتين إلا كل احتفاء وإكرام، ثم أضفت قائلًا: إذًا بناءً على هذه الدالة أستميح دولتكم أن تصطبروا قليلًا، ريثما أراجع وزيري بهذه القضية. وإنني على أمل وطيد أنكم ستنالون الترضية التي ترومونها. أما إذا كنتم دولتكم معجلين بخروجي من هذه البلاد؛ فإنني مستعدٌّ لتلبية الأمر. فضحك الوزير، ثم طلب السكرتير وقال له: استبق الأمر إلى فرصة أخرى. فقلت: لي رجاء آخر وهو: تعرفون أن العثمانيين في هذه الجمهورية يبلغون مائة وعشرين ألفًا، منهم نحو خمسة عشر ألفًا في العاصمة، ومن تبقى ففي الداخلية منتشرون. فإذا رفعتم ولايتي عن هؤلاء؛ فمن يهتم بشئونهم يا ترى، وليس لهم قناصل في الولايات؟

فأجابني: يمنكم الاتفاق مع سكرتير الوزارة على هذه القضية. فشكرته. ولما نهضت لوداعه قلت: أظن أن دولتكم تتفقون معي على بقاء أمر الخلاف مكتومًا عن الجميع ولا سيما عن الصحافة؛ لأن معظم الصحفيين يجهل الأمور السياسية والمعاهدات الدولية. وبما أن لكل حكومة أخصامًا وأعداءً؛ فسيغتنم هؤلاء الفرصة لانتقادها. فقال: صدقتم. وأمر السكرتير كي يكتم أمر الخلاف عن الجميع.

وأرجو من دولتكم الاحتفاظ بهذا التقرير السري.

أحرر هذا التحرير عاجلًا؛ إذ في هذا المساء سيسافر بريد أوروبا.

وبالختام أرجو من عطوفتكم قبول احترامي، وإني الخادم المطيع.

القنصل الجنرال

أمين أرسلان

وبعد خروجي من لدن الوزير دخلت على سكرتير الوزارة، وبما أنه كان صديقًا حميمًا لي تمكنَّا من الاتفاق على أنه منذ الآن يحل كل خلاف يتعلق بشئون العثمانيين المقيمين في الولايات بعرضه بواسطة ما يسمى في السياسة «ميموراندوم»، أي تقرير بصفة الغائب. وهكذا لم يتضرر بسبب هذا الخلاف عثماني ما، ولم يَدْرِ به أحد.

مضت الأيام وتلتها الأسابيع، وأنا على أحر من الجمر أستنظر جواب الوزير. وبعد شهرين ونصف الشهر وصلني من مستشار عدليتنا تقرير مطول من ثماني صفحات كبيرة، حاول به ذلك المستشار تفنيد أقوال وزير خارجية الأرجنتين. ولم أكد أفرغ من تلاوته حتى عرتني الدهشة؛ لأن حضرة المستشار تخيَّل نفسه محاميًا عليه الدفاع ولو عن المجرمين. وقد بنى جميع براهينه على أساس واهٍ دون أن يخطر بباله أن للأرجنتين حقًّا بامتيازات خاصة؛ نظرًا للمعاهدة الولائية التي وقعتها معنا. وقد تنازلت بها عن المطالبة بالامتيازات الدولية لقناصلها. وعليه فقد كنت على ثقة بأنني إذا سلمت هذا التقرير لوزارة الخارجية الأرجنتينية؛ فسيكون الجواب عليه إلغاء المعاهدة وقطع العلاقات حالًا.

ولحسن الطالع تسنم في أثناء هذه البرهة البرنس سعيد حليم منصة الصدارة العظمى مع وزارة الخارجية. وبما أنني كنت أعرف سموه في باريس؛ إذ كان من عداد أعضاء حزب تركيا الفتاة، فقد حررت له شخصيًّا الرسالة الآتي تعريبها:

عزيزي صاحب السمو

لقد تشرفت بمرسوم سموكم الرسمي تاريخ ... رقم ... وعن طيه تقرير مستشار عدليتنا الذي أراد به تفنيد مطالب حكومة الأرجنتين بشأن قنصلها في الأستانة.

إنني أستمحيكم عفوًا لتحريري لسموكم شخصيًّا هذه الأسطر؛ كي أخبركم بها أنني قد اتخذت لنفسي الحرية بعدم تقديم هذا التقرير لوزير الخارجية الأرجنتينية؛ لأنني على ثقة أن النتيجة تكون إصدار الأمر بإلغاء المعاهدة الودادية، وإلغاء قنصليتنا معها في الحال. ولا يخفى على سمُوِّكم ما سيكون وقع ذلك في أوروبا عمومًا، وعلى أبناء الجالية هنا خصوصًا. ولا ريب أن أعداء الدولة سيغتنمون هذه السانحة للتهويل، قائلين إن الدولة الأولى التي رضيت بالتخلي عن الامتيازات الدولية قد اضطرت بعد سنتين إلى إلغاء المعاهدة. ولما كانت حكومتنا الدستورية ساعيةً لإلغاء هذه الامتيازات؛ فسيكون قطع العلائق الولائية بيننا وبين الأرجنتين حجة علينا.

هذه من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن حضرة المستشار قد نسي كل النسيان القضية الأساسية، وهي كما صرح لي وزير الخارجية هنا، ألا شأن للأرجنتين مع بقية الدول، ولا يخفى على سموكم ما في هذا القول من الإصابة.

وقد شرحت في تقريري السنوي الرسمي الأول الذي رفعته إلى وزارة الخارجية حالة العثمانيين هنا، وأن سمعتهم الأدبية قد تحسَّنت كثيرًا عنها في اليوم الأول الذي وصلت فيه هذه البلاد. وتبين لي من

جوابات المصارف السرية أن العثمانيين يرسلون ما يقارب المليون فرنكًا شهريًّا إلى ذويهم وأقاربهم. وعليه؛ فإن إلغاء القنصلية بعد سرور العثمانيين المهاجرين من الحصول عليها؛ لأنهم كانوا يسعون لنيلها منذ زمن، سينجم عنه كدرهم كدرًا شديدًا، وعودتهم إلى حالتهم الأولى؛ أي دون ممثل يقضي لهم مصالحهم ومعاملاتهم سواء في دوائر الحكومة هنا، أو في حلهم وترحالهم.

وبما أنني مطَّلع على عقلية ذوي الحل والعقد هنا، بعد أن درستها وخبرتها هاتين السنتين، وعرفت أن المرء إذا لم يمسَّ شواعرهم الوطنية ينال منهم ما يريد ضمن المنطق والعدل طبعًا، فإنني على تمام الثقة أنكم إذا حررتم لي جوابًا تقولون فيه: نعترف للحكومة الأرجنتينية بحقها؛ بيد أننا نرجو من صداقتها ألا تلح بالعمل به؛ كي لا تثير على الحكومة مشاكل مع الدول الأخرى، يزول كل الخلاف. أما إذا كنتم سموكم على غير هذا الرأي، وألغيت المعاهدة، وأقفلت قنصليتي؛ فأرجو إفادتي إلى من تأمرون بتسليم أوراقها وسجلاتها؛ لأنني سأغادر البلاد حالًا في أول باخرة. وأرجو من سموكم قبول فائق احترامي.

أمين رسلان

فبعد تصرم شهرين وصلني جواب من الصدر الأعظم؛ طبقًا لما رجوته، وحدث ما كنت أتوقع؛ إذ قبل وزير الخارجية هنا بذلك الجواب، لكنه أشار بوجوب ارتقاء القنصلية العامة إلى درجة سفارة، تأخذ على عاتقها في الوقت نفسه الاهتمام بشئون القنصلية؛ وذلك منعًا لتكرار حدوث ما حدث. فرفعت ذلك الرأي إلى الأستانة، لكن قبل بروزه إلى حيز الوجود قدمت استقالتي من القنصلية، بعد أن دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية، ودارت الدائرة

عليها، وسلخ عنها جزيرة العرب والعراق وفلسطين وسورية ولبنان، وألغيت قنصليتها في الأرجنتين، فكنت والحالة هذه الممثل الأول والآخر للدولة العثمانية في هذه الجمهورية.

ومتى سنحت لي الفرصة سأتابع مذكرات أخرى، أشرح بها أسباب استقالتي والمشادة التي حدثت بيني وبين قنصل جنرال ألمانيا، وغير ذلك من الحوادث الطلية المهمة.

وما المأرب من نشر هذه المذكرات؛ إلا أن تكون عبرة وذكرى لأبناء وطني الكرام والسلام.

انتخاب القناصل

منذ اليوم الأول الذي باشرت به مهام القنصلية في الأرجنتين، انهالت عليَّ مطاليب العثمانيين المقيمين في الداخلية. وهذه كانت طبعًا أشد صعوبة وأكثر نفقة من مطاليب إخوانهم قُطَّان العاصمة؛ لأن القانون يفرض مثلًا على من يريد المصادقة على إمضاء أن يكون صاحب الإمضاء نفسه أمام القنصل، حسبما يجري لدى محرر المقاولات، ويقول زيادةً على ذلك بوجوب إحضار شاهدين. ولما كان يتعذر على عثمانيي الداخلية السير حسبما تقدم؛ فكان عليهم، والحالة هذه، أن يفعلوا ذلك أمام محكمة العدل إذا وجدت حيث يقطنون، أو أمام قومسير البلدة. وبعدئذ يصادق على إمضاء القومسير نفسه رئيس المحكمة الذي ينتمي إليها ثم تصادق على الجميع وزارة الخارجية. هذا هو القانون المعمول به عند جميع الشعوب المتحضرة.

أما العثمانيون المهاجرون؛ فكانوا يجهلون ذلك، ولهذا ألقوا عليَّ تبعة هذه المعاملات الشاقة الوافرة النفقات، دون أن يخطر ببال أحد منهم أنني لست بواضع هذه القوانين لألغيها حين أشاء، وأن من واجبي السير بموجبها؛ وإلا فأكون مسئولًا عن كل مخالفة. وبعد إنعام الفكرة رأيت أن الوسيلة الفعالة لوضع حد لهذه الصعوبات، هي إنشاء قناصل فخرية في عواصم ولايات الأرجنتين. فحررت بذلك إلى الوزارات فوردني جواب منها يقول: أنتم أعلم بما يناسب، فاختاروا من تجدون بهم الجدارة لهذا المنصب، واسعوا لمصادقة وزارة الخارجية الأرجنتينية على تعيينهم، ثم أرسلوا لي أسماءهم للحصول على الإرادة السنية بتعيينهم.

وهنا بدأت الصعوبات التي لم تكن تخطر لي ببال؛ إذ بما أنني كنت أجهل البلاد عمومًا، ورجال الجالية خصوصًا في ذلك العهد؛ أخذت أستشير من كنت أعتقد بهم الإخلاص والاستقامة، فبرزت حالًا الأخلاق الشرقية بأجلى مظاهرها واختلط الحابل بالنابل، وصار كلٌّ يغني على ليلاه. فهذا يشير بتعيين زبون له في تلك الحاضرة، وذاك يقول بوجوب تعيين فلان من أبناء طائفته، وذلك ينصح بتعيين تاجر يرجو أن يكسب صداقته، فيصير من زبائن محله وهكذا دواليك. ثم أشيع أن لا بد للحصول على التعيين من دفع بضعة آلاف من الريالات عدًّا ونقدًا، فحسبت أن القيمة التي سيدفعها الأربعة عشر قنصلًا الذين عزمت على تعيينهم ستربو على الستين ألفًا من الريالات … فقط لا غير. وطبعًا إن هذه القيمة قد طلبت باسمي، مع أنني كنت جاهلًا ما يجري كل الجهل.

وصفوة القول أنني لم أتمكن من أن أضم رأيين إلى رأي، وقد فهمت أشياءً كثيرة عن سوابق كل مرشح من المرشحين الذين لم يخلُ أحدهم من سابقة غير مستحبة.

هذه هي العقدة الأولى التي واجهتها. أما العقدة الثانية فكانت اختيار مرشحين جديرين؛ إذ بما أن الوظيفة كان فخرية؛ فيجب أن يكون المرشح لها مثريًا ذا مركز حسن؛ ليصلح أن يمثل الدولة. وصدف أن معظم أرباب الثروة من المهاجرين العثمانيين لم يكونوا على جانب من العلم والثقافة يؤهلهم لتولي الوظيفة. أما المتعلمون الراقون فلم يكونوا من ذوي الثروة.

العقدة الثالثة: أن المعاملات الرسمية نظير المصادقة على الإمضاءات والباسبورتات وشهادات التابعية وغيرها، يجب أن تتم باللغتين التركية والفرنسية، وكان الكل يجهل هاتين اللغتين؛ ولهذا لم أجد مرشحين مناسبين لتولي مهام القنصليات. فإزاء هذه الصعوبات؛ فضلت تأجيل تعيين القناصل إلى يوم أذهب فيه بالرخصة إلى الأستانة، وأعرض ذلك على وزير الخارجية وأعمل بما يقرره؛ لأن دولته أراد إلقاء المسئولية على عاتقي وحدي، فأردت أن يشاركني فيها، وفضلت احتمال أشغال المائة ألف عثماني على تعريض اسم الحكومة العثمانية الدستورية إلى الانتقاد أو العار.

إنشاء نادٍ

ذكرت في بدء هذه المذكرات أن البعيدين عن الأرجنتين كانوا يعتقدون بتقدم الجالية العثمانية ورقيها ماديًّا وأدبيًّا، ولهذا دهشت عندما وصلت الجمهورية الفضية، فلم أجد للجالية ناديًا عموميًّا أو خصوصيًّا لإحدى الطوائف. وعندما كنت أسأل عن السبب كانوا يجيبونني: ومن يكون الرئيس؟ لأن حب الرئاسة داء الشرقيين العضال، وكانوا يلحُّون عليَّ بقبول الرئاسة دون أن يحفلوا بجوابي لهم أنه لا يمكنني تلبية مطلبهم؛ لأن وظيفتي تحول في سبيل ذلك. أخيرًا ألحوا عليَّ بأن أسعى لتأليف نادٍ لهم، فنزلت عند

رغبتهم ولو أن ذلك ليس من خصائصي، وحررت مائة وخمسين دعوة أرسلتها لكل من قالوا لي عنه إنه من أصحاب الوجاهة من أية طائفة كان، واكتريت «كونفتيريا الآغيلا» في شارع فلوريدا. وهذه كانت صورة الدعوة.

> القنصل العام يدعوكم لتناول الشاي عند الساعة التاسعة بعد ظهر اليوم ... في «كونفتيريا الآغيلا»، ولمفاوضتكم في شئون تعود بالفائدة على الجالية، وتفضلوا بالجواب ودمتم سالمين.

فأجاب خطًّا على دعوتي ما يناهز المائة، أما الباقون فلم يحضروا ولم يجيبوا، مما يدل على جهلهم حتى قواعد الأدب الابتدائية؛ لأن الجواب على أية دعوة كان هو من أول الواجبات، وقد حضر في الجلسة الأولى ما يقارب المائة، وفي الثانية نحو خمسين شخصًا، وفي الثالثة نحو الثلاثين. وقد تسنَّى لنا إنشاء ذلك النادي وانتُخب من بين أعضائه شخص لم يحضر ولا جلسة من الجلسات التمهيدية، لكنه كان من ذوي الثراء وعلى جانب عظيم من البخل. ولكيلا يتملص أحد من دفع خمسة ريالات شهريًّا؛ طلبت من الأعضاء التوقيع على تعهد مكتوب على ورقة رسمية مع التمغة. ولكن لسوء الحظ لم يكد يتم انتخاب عمدة عاملة لذلك النادي، حتى انحلَّ وأمسى في خبر كان. وذهبت جميع أتعابي أدراج الرياح؛ لأن التعصبات الطائفية مدت أصابعها، وعملت على هدم ما بنيت.

لم أعتبر بما حدث لي، بل نزولًا عند رغبة قسم وافر من التجار، سعيت لتأليف غرفة تجارية، واهتممت بوضع قوانينها غير عابئ بوفرة أشغالي، إلا أن هذه كان نصيبها نصيب النادي وماتت وهي جنين. وهكذا كلما رغبت الجالية في عمل شيء أراه مفيدًا لها، كنت أسعى لإنجازه ولكن:

ونارٌ إن نفخت بها أضاءت   ولكن أنت تنفخ في رماد

لأن جميع مساعيَّ ذهبت سُدًى دون أن تثمر الثمرة المطلوبة، ولم أربح سوى الانتقادات الجارحة والتهم الباطلة.

ولكي يكون القارئ على بينة مما أقول، أنشر المقال الآتي الذي نشره كاتبه في جريدة «فتى العرب» يدافع به عنِّي دفاعًا لا أستحقه، وهاكه بحروفه:

كيف نقدر رجالنا؟

إن من يرغب في خير أمة ينتسب إليها؛ فعليه أن ينبهها إلى خطئها لتتحاشاه، لا أن يحبذ جهلها، فتعمه في دياجيه على غير هداية. لكننا نحن نلذ بإيهام أنفسنا بغير ما نحن عليه، ثم نستاء عندما نرى من يرفع عن أعيننا غشاء الوهم، ونقاب الضلالة.

نحن عنصر هُضم حقه، وأمة مُسَّت كرامتها، لكننا نجهل كيف نطلب هذا الحق، أو نستعيد تلك الكرامة.

نحن في مسيس الحاجة إلى رجال أعلام أكفاء يخلصون لنا الخدمة ويصدقون النصح، ويضحُّون بشخصياتهم على مذبح العموميات. أحيانًا نظفر بأحد هؤلاء الرجال، وهم فينا القليل، فنكون عليهم أشد وطأة وتجاههم أكثر عداءً وبإسقاطهم أعظم تشفيًا.

نحن نطلب الاشتراك في الحكم، لكن عندما تعدل فينا الأستانة بأن تقلد فينا سوريًّا وظيفة كبيرة يستطيع بها أن يخدم مصلحتنا، ويعزز

جانبنا، ويذب عن حقوقنا، نكون عنه أقل رضًا من المتوظف الآخر نفسه. وإليكم ما وعدت بالتمثيل به:

إننا في هذه البلاد نحو المائة وثلاثين ألف عثماني، منا نحو الثمانين ألفًا من السوريين العرب، وقد أنصفتنا الأستانة بأن وجهت إلينا قنصلًا عربيًّا سوريًّا، ومن خيار شبابنا الأحرار النوابغ. القنصل العام هو الأمير أمين أرسلان، المعروف بحملاته العنيفة على الحكومة القاتمة التاريخ، وفي خدماته الجُلى في سبيل الأحرار والدستور، رغم ما لقيه في سبيل ذلك من المصاعب ومن الاضطهادات.

ولكي أعرف إلى القراء الكرام الأمير أرسلان، لا أعيد تاريخ حياته البعيد، لكنني أكتفي أن أجيء على ذكر أعماله كقنصل في هذه الجمهورية على عهد الدستور، وهو في وسط جالية جلها عربي سوري، كما سبقت إشارتي.

قبل مجيء القنصل العثماني العام إلى هذه الأقطار، كان اسمنا كناية عن كلمة إهانة وتحقير وازدراء. فتمكن سعادة القنصل بعد أن ناظر وكتب وخاطب وخطب السنة والسنتين والثلاثة من تغيير الرأي العام، فأصبحنا يجاهر واحدنا بجنسيته غير خافت الصوت وغير ندي الجبين.

أما المصاعب التي لقيها الأمير أرسلان في تأسيس القنصلية العثمانية في هذه الديار؛ فقد تخور لديها الهمم الشمَّاء. يدرك ذلك من عرف اختلاف اللغات والأجناس، والمشارب في الجالية العثمانية، وأن الأمير هو الممثل الوحيد لهذه الجالية الضخمة، بينما الجوالي الأخرى الصغيرة الأوربية لا يبلغ عدد بعضها العشرة آلاف، لكل منها سفير

وقنصل عام، ونواب قناصل في كافة ولايات الجمهورية. فكان يشتغل في اليوم العشر ساعات متوالية، فلا يؤجل عملًا إلى الغد ولا يرد ذا مصلحة إلى يومٍ ثانٍ.

المعيشة في هذه البلاد هي أغلى معيشة في الدنيا، فما يستطيع الإنسان أن يبذخ به في باريز لا يكفي لسد رمق الحياة في عاصمة الأرجنتين. ما يدخل للقنصل من الراتب لا يكاد يكفي لمصاريفه الضرورية، ومع ذلك فلكي يحافظ على مكانته الأدبية، ولكي يستطيع أن يعزز مكانة الجالية لا يجد بدًّا من إقامة الولائم لكبار الرجال، ومعاشرة علية القوم، فينفق في سبيل ذلك من جيبه الخاص حبًّا بمصلحة الجالية قبل مصلحته.

تأثير القنصل في الدوائر السياسية

جاء بونس أيرس «جون كارير» مراسل جريدة الطان الباريسية، الذي جرح في الحرب الطرابلسية مأجورًا من الطليان في هذه الجمهورية ليتغنى بشجاعة عساكر إيطاليا، وليتحامل على عساكرنا العربية التركية، إلى غير ذلك مما يمس كرامة العثمانيين.

وجد الأمير القنصل أن شريعة البلاد تقضي بحرية الاجتماع ولا يمكن منع إلقاء المحاضرة، فطلب إلى الحكومة ثلاثة أمور، وفاز بها كلها. أولًا: عدم السماح للإيطاليين بأقل مظاهرة احتفاءً به. ثانيًا: أن يصرح هو علنًا على صفحات الجرائد ألا يمس عاطفة العثمانيين. ثالثًا: ألا تسمح البلدية له أن يلقي محاضراته في مسرحها.

بقي أن أعرف أهمية الإيطاليين في هذه البلاد. يفوق عدد هؤلاء المليون نسمة، ومكانتها الأدبية والاقتصادية تفوق أية الجوالي الأخرى، لا بل إن مصلحة هذه البلاد هي إلى جانب المتمول الإيطالي والتاجر والمزارع والعامل والعالم، ولا تكاد تخلو دوائر الحكم العليا من إيطالي أو ابن إيطالي؛ حتى إن رئيس البوليس العام كان في ذلك الوقت إيطاليًّا.

وللطليان في هذه البلاد سفير وقناصل في كافة ولايات الجمهورية. لم يكن على القنصلية أن تقاوم السفارة الإيطالية فقط في هذه المشكلة، وأن تقاوم جالية ضخمة على جانب عظيم من الرقي والغنى والتأثير في دوائر البلاد؛ فقد كان عليها أيضًا مقاومة السفارة الإفرنسية التي كانت مضطرة إلى مساعدة مراسل صحيفة فرنسا الكبرى. تغلب القنصل العثماني على كل هذه مجموعةً، كل ذلك بتأثيره الشخصي في دوائر السياسة والحكم.

ولأزيدكم إيضاحًا عن منزلة القنصل في الدوائر العليا؛ أورد لكم حقيقة ثانية.

يوجد في هذه الجمهورية نحو الثلاثين سفيرًا وقنصل عام، لا يعرف اسم واحد منهم، وذلك رغمًا عما يمثله بعضهم من صولة دولهم وبطشها ومدنيتها. ثم إن وزير الخارجية لا يقابل أحدًا من هؤلاء السفراء إلا بأوقات المقابلات الرسمية، بينما أنه يقابل القنصل العثماني متى طلب وأي وقت شاء، وبينما اسم قنصل العثمانية يخفق في كل مجتمع وكل مقام سامٍ.

مرض قنصلنا الأمير مرة، وأجريت له عملية جراحية، ثم قبيل أن يغادر غرفة الجراحة كان رئيس الجمهورية سان سبانيا قد أنفذ مقدم السفراء يتفقده، ويسأل عن حاله. وفي كل يوم كان يخاطب الممرضة بالتلفون، ويسأل شخصيًّا عن صحته.

تلك مكانته في دوائر السياسة، فلنرَ مركزه في دوائر العلم.

بعدما اشتهر الأمير بعلمه وأدبه وفضله، أرسلت جامعة «لا بلاتا» الكبرى تطلب إليه أن يلقي محاضرة في ناديها للصفوف العليا. لبَّى الأمير الطلب وكان محط إعجاب الأساتذة والطلبة والزائرين. ومذ ذاك العهد جعلت عليه المدرسة فرضًا واجبًا بأن يخدم رجال المستقبل بمحاضرة يلقيها عليهم على الأقل مرة في العام، وقد ألقى إلى الآن ثلاث محاضرات، درجت كلها في مجلة العلوم السياسية، أهم مجلة في أميركا الجنوبية، ويحرر فيها نخبة العلماء. أمامي الآن محاضرته الأخيرة وموضوعها: تاريخ السياسة في البلقان، وقد استغرقت من صفحات المجلة اثنتين وثلاثين صفحة، لم ينسج كاتب غربي أو شرقي على منوالها.

إن كافة المجلات والصحف الكبرى في هذه البلاد تتسابق إلى نشر مقالاته وآرائه، وقد طلبت إحدى المجلات احتكار قلمه، بدل ذلك خمسين ريالًا لقاء كل صفحة. رفض الكاتب المجيد الطلب مفضلًا أن يترك قلمه حرًّا للدفاع عن مصالح قومه ودولته.

إليكم حكاية أخرى:

الدكتور غونسالس رئيس جامعة لا بلاتا الشهيرة، والنائب في مجلس الشيوخ عن ولاية الريوخا وعن الأرجنتين في مؤتمر السلم في لاهاي حاليًّا، ووزير الزراعة فالمعارف فالداخلية فالخارجية سابقًا، وهو أكبر ثقات أهل العلم والأدب في هذه البلاد، دُعي منذ أمد غير بعيد إلى مأدبة شائقة أدبها له الدكتور جورج صوايا في مدينة تشيلسيتو مسقط رأس العالم المومأ إليه، حضرها أكابر رجال الولاية وهيئة الحكومة الرسمية، وجمع غفير من السوريين والأرجنتينيين، فوقف الدكتور غونسالس في القوم خطيبًا، وبعدما

أباح بما هو مشهور عنه من الميل إلى العثمانية عمومًا والعنصر العربي خصوصًا، نظرًا لما يعرفه من النسب بين الشعب الأرجنتيني والعربي عن طريق الدم الإسباني الذي امتزج به دم العرب في الأندلس ثمانية قرون متوالية، قال:

«كنت أجهل أن في الأمة العربية اليوم رجالًا يدرسون فينبغون فيلقون علينا دروسًا في السياسية وفي العلم وفي الأدب، ألقاها علينا أجدادهم في الزمن الفائت، إلى أن أسعدني الطالع فتعرفت إلى القنصل العثماني العربي الأمير أمين أرسلان. عرفته على المنبر وفي المجلة العلمية والجريدة السيارة، ثم تطرقت إلى معرفته كصديق وكرفيق، فوجدت به الرجل الذي أبيح لديه إعجابي وأرفع له قبعتي. أصدقكم أني عاشرت كثيرًا من السفراء والقناصل والوزراء والكتبة والصحافيين، فلم أجد من يصارع الأمير أرسلان بصفاته مجموعة. عندما أكلمه أحسبني أخاطب أحد أعضاء «الأكاديمية» الإفرنسية، لكنما أرسلان أفندي جامع بين شهامة العربي ودماثة الباريسي ...»

ليس الدكتور غونسالس الذي انفرد من بين أهل العلم بمدح القنصل العام، فإن أعظم متشرع في عصرنا العلامة أرنست نيس، والعلامة جول كلارتي من المجمع العلمي الفرنسوي ينشران به التقاريظ، وأطيب الثناء في أعظم جريدة أوروبية هي الطان.

وفي هذه المناسبة إليكم الفكاهة التالية:

لما نشرت مؤخرًا مجلة العلوم السياسية مقالة القنصل الأمير التي موضوعها «تاريخ السياسة في البلقان»، وعلقت عليها الجرائد الأرجنتينية

الفصول الطوال إعجابًا وتقريظًا، كانت تكتب أكثر الصحف العربية في بونس أيرس بهذا الشأن فتقول:

«وصلتنا مقالة سعادة القنصل في الموضوع الفلاني، فنرجو لها الانتشار.» فتأملوا.

القنصل العثماني أرسلان أفندي يخدم اليوم المهاجرة العثمانية على الإطلاق، بما سيخلد اسمه ما بقي عثماني يقدر الخدمة، ويقدر الأعمال. هو سن قانونًا جديدًا للمهاجرة يضارع أرقى القوانين من هذا النوع في الدنيا. قد طلب إلى الأستانة ووالى الطلب يدعو إلى إصلاح هذا النقص الذي يئن تحته المهاجر العثماني منذ زمن طال. أخيرًا أجابت الأستانة، وأوكلت إليه أن يسن هذا القانون ويوجه به إليها، وقد فعل فقرأنا على صفحات الجرائد القانون تامًّا كامل الشروط، يكفل راحة المهاجر المسكين؛ مذ ترْكِه مرفأ بلاده إلى حين استلامه زمام أشغاله، حينما أَمَّ وأينما توجه.

لا تجمعني مع القنصل العثماني جامعة لا تجمعه مع أفراد النزالة السورية في هذه البلاد. وأنا بعيد عن العاصمة مقر القنصلية نحو الثلاثة أيام في السكة الحديدية، فأنا لا أرجو إلى القنصلية تقربًا، ولا آمل منها خيرًا أو أرهب منها شرًّا. إنني أوردت هذه الحكاية مستشهدًا لا مقرظًا. اشتهر أننا فئة من البشر لا تقدر قدر رجالها، مهما اتصفوا به من الفضيلة ومن المقدرة ومن الإخلاص. إذا رأينا أحدنا يتسنم المراكز السامية بعلمه ومعارفه ونشاطه؛ فعوضًا عن أن نساعده على بلوغ الشأو الذي يصبو إليه، نقف في وجهه حاجزًا، بل نتعلق بأذياله،

فإما أن يتملص منا فيفوز، وإما أن نظفر فنعود وإياه إلى الحضيض دفعةً واحدة.

السوريون الذين ينتقدون القنصل يفعلون ذلك فقط؛ لأنه سوري ولأنه يخاطبهم بلغتهم العربية. لا أجد لذلك سببًا آخر.

يوجد في هذه البلاد نحو الخمسين ألف عثماني لا يتكلمون اللغة العربية، وهؤلاء على أتم الرضى مع قنصل يفاخرون به في كل مقام. أما إخواننا السوريون فهؤلاء هم الوحيدون الذين يقلقون القنصل السوري العربي في الأرجنتين، وأستحيي النفس أن أقول في مراجع الأستانة أيضًا …

ماذا يقول إخواننا في الأستانة متي بلغهم تذمرنا؛ نحن الجالية الوحيدة التي لها قنصل عربي، والجالية الوحيدة التي تشكو من قنصلها العربي هذا. ما رأيكم دام فضلكم.

الجوالي العربية الأخرى التي يكلمها قناصلها بواسطة الترجمان، والتي لا يقضون لها سوى أشغال القنصليات الرسمية، التعليم على التذاكر، والمصادقة على التحاويل والوكالات، هؤلاء على أتم رضًى وسلام مع قناصلهم يقفون أمامهم مكتوفي الأيدي مكشوفي الرءوس.

ألمة تلك تطلب حقوقها! أشعب ذلك يقدِّر رجاله؟! أقوم أولئك يعرفون واجبهم! هكذا يا إخوان تعزز الجنسيات؟!

الأرجنتين

مراسلكم

ابن عابدين

«فتى العرب»

[١] قلنا: لو عاش كوبليان إلى الآن؛ لما وجد اللبنانيين فقط قد حنوا ظهورهم أمام الفرنسيين، بل قد ركعوا سجدًا يقبِّلون أيديهم بخشوع، ولرأى زعماءهم مستكلبين على الوظائف استكلابًا لم يشهد التاريخ نظيره.

[٢] لم يطلق اسم لبنانيين على أبناء لبنان في الأرجنتين إلا على عهد الانتداب الفرنسي.

مأساة في السلك السياسي

لقد صدق من قال إن الدهر أمهر روائي، فقد يحدث أحيانًا من الأمور ما لا يخطر ببال أبلغ الروائيين، وإلى القارئ الحادثة التالية التي وقعت في بروكسل وكنت أحد شهودها:

كانت تجمعني صداقة متينة العرى مع سفير تشيلي في البلجيك السنيور وادنكتون وهو رجل لطيف المعشر كريم الأخلاق راقٍ بكل معنى الكلمة. وكان له في ذلك العهد ولدان في مقتبل العمر؛ شابة في الحادية والعشرين من سنيها رائعة الجمال بهية الطلعة لطيفة المعشر، وشاب لم يبلغ الثامنة عشرة كثير الحياء. وكانت دار السفارة التشيلية بجوار غابة «لاكمبر» الواقعة في ضواحي المدينة. وفي عصاري كل يوم كان يفد إليها أصدقاء السفير يتناولون الشاي ويتجاذبون أطراف الحديث، وبعضهم كان يلعب لعبة «التنس». وكان للسفير أصدقاء عديدون نظرًا لما كانوا يلاقونه هنالك من الحفاوة والظرافة والكياسة والجمال الرائع.

واتفق في أحد الأيام أن تعين للسفارة سكرتير جديد يدعى السنيور «بلماسيدا» حفيد رئيس جمهورية تشيلي ومن أسرها الشريفة، وكان جميل الطلعة كثير الخيلاء والكبرياء، ولم تتصرم أيام وجيزة على وصوله حتى هام بابنة السفير رئيسه وشغف بها. ولما كان شديد الغيرة فقد قلل جميع زوار السفير زياراتهم وخلا له الجو «فباض واصفر».

وبعد أربعة شهور أعلنت الخطبة رسميًّا وأراد السفير أن يقيم مأدبة بمناسبة عقد الخطبة واتفق ذلك اليوم أني كنت مريضًا وجاءني عند الغروب زميلي قنصل جنرال البرازيل عائدًا، ولما قصد العودة إلى منزله ليرتدي ثيابه الرسمية للذهاب إلى المأدبة قلت له: لقد أرسلت باقة زهر إلى «يايا» (اسم الفتاة) وكتبت رسالة للسفير أعتذر بها عن الحضور لداعي مرضي، ثم رجوته أن يعتذر عني مرة أخرى.

ولما أصبح اليوم التالي وفتحت صحيفة الصباح لأقرأها حلَّ بي الروع العظيم عندما وقع نظري على العنوان التالي: مأساة في سفارة تشيلي، ابن السفير يقتل السكرتير خطيب شقيقته، لا يحقُّ للحكومة التدخل في الأمر للامتيازات السياسية.

ثم تلى ذلك أربعة أعمدة تفصيلًا للمأساة فلم أطق صبرًا أن أبقى في سريري فنهضت حالًا لزيارة صديقي السفير والقيام بمساعدته وتخفيف أشجانه في تلك المأساة الهائلة. وإلى القارئ أسبابها:

لما دنت ساعة المأدبة كانت عقيلة السفير ترتب الأزهار على المائدة وتلقي نظرة عامة على الاستعدادات، وإذ فتح الباب فجأة ودخل الخطيب «بلماسيرا» فقالت له عقيلة السفير: لماذا إلى الآن لم ترتد ثيابك الرسمية ولم يبق سوى قليل من الدقائق لابتداء المأدبة؟ فأجابها بصوت المستهزئ المستهتر: لأني لا أرغب في حضور المأدبة.

فقالت له: كفاك مزاحًا يا هذا وأسرع بارتداء ثيابك.

فأجابها: إني لا أتكلم سوى الجد.

فذهبت عقيلة السفير وسألته عن السبب، فأجابها لأنني لا أرغب في الزواج مطلقًا.

فران الغضب على محيا السيدة وقالت له: ولماذا لم تخبرنا قبل الآن، وأنت تعلم أن سيحضر المدعوون قريبًا لحضور حفلة الخطبة؟

فأجابها بكل برودة: تدبروا الأمر كيف شئتم. وخرج مغلقًا الباب وراءه ثم عاد ففتحه ودخل قائلًا بابتسام: لقد سهي عن بالي إخباركم أنه إذا جاء إلى ابنتكم ولد فإني أهديكم إياه أيضًا.

فأدركت الأم الحقيقة الهائلة وسقطت على الأرض مغشيًّا عليها من هول الصدمة. أما السكرتير فلم يبال بها بل تركها كما هي وذهب إلى النزل الذي يقطنه.

ودخل في تلك الدقيقة ولدها الشاب كارلوس فوجد والدته مغمًى عليها فهرول إلى إسعافها، ولما أفاقت من غشيتها وسألها عن السبب قصت عليه القصة كما توقعت.

فخرج الشاب من لدن والدته دون أن ينبس ببنت شفة وبعد أن أخذ مسدسه ذهب إلى حيث يقطن خطيب شقيقته وكان صديقًا حميمًا له، فوجده يدخن (سيكارة) على كرسي هزاز فقال له بصوت أجش وأمائر الاضطراب والغضب بادية على وجهه: لقد أخبرتني أمي بما حدث؛ وعليه فليس لك بعد تصريحك هذا سوى طريقتين: إما الزواج، وإما الموت.

فقال له السكرتير ساخرًا: دع عنك هذه المهزلة.

فأجابه كارلوس بحنق: لا بل دع أنت عنك هذه السخافة وفكر بما تجيب.

فأجابه: لقد فكرت كثيرًا وصممت على عدم الزواج بشقيقتك.

فقال له: ولكنك خدعتها بطريقة دنيئة سافلة.

فجاوبه: تدبروا الأمر بالتي هي أحسن.

فأعاد عليه كارلوس التهديد. فسخر به. عندئذ سدد كارلوس مسدسه على العابث بشرف شقيقته وأطلق النار عليه فأصابت رصاصاته الست رأسه فسقط يتخبط بدمائه وفارق الحياة حالًا.

وعاد كارلوس إلى السفارة في الساعة التي بدأ السفراء والقناصل وسائر المدعوين يتواردون إلى السفارة. فاعتذر لهم الخَدَم وعاد كلٌّ إلى بيته.

ولما كان القاتل ابن السفير والمقتول سكرتيره والاثنان حائزين على الامتيازات ولا تجوز محاكمة القاتل أمام المحاكم الوطنية؛ ترتب على السفير أن يرسل ابنه إلى تشيلي لمحاكمته فيها.

أما هو فنظرًا لوجود ضغائن بين عائلته وعائلة المقتول، ونظرًا لنفوذ العائلة الأخيرة وخشيةً على ولده من ذلك النفوذ آثر التنازل عن حقوقه وتسليم ابنه إلى محاكم البلجيك، فألقي القبض عليه وزج في السجن ريثما تصير محاكمته.

ولا يَخفى أن محاكمة القتل في أوروبا تكون علنية يحكم فيها المحلفون.

وسألني السفير عن المحامي المناسب لاستلام الدفاع عن ابنه، فأشرت عليه بالمسيو «جنسون» الذي تسلم بعدئذ مهام وزارة العدلية فرضي به.

المحاكمة

عندما جاء يوم المحاكمة تمكنت بواسطة العلامة نيس الذي كان رئيس محكمة الحقوق من حضورها وراء القضاة.

ها قد مضى على تلك الحادثة نحو ربع جيل ولا أزال أشعر بالانفعال الشديد كلما تذكرتها نظرًا للمشهد الرهيب وللوقفة الهائلة التي وقفها ذلك الشاب الباسل إذ كان يسمع ما يقولونه عن شقيقته جهرًا وهو كاظم غضبه لا يستطيع الدفاع.

لقد ظهر من المحاكمة أن خطيب تلك المسكينة كان وغدًا لئيمًا زنيمًا، وأن حبه وجاهه اللذين كان يتظاهر بهما أمام فريسته لم يكونا سوى أحبولة لاصطيادها وقضاء وطره الدنيء منها. فلما قضى لبانته تركها وشأنها.

أما المسكينة فكانت تحبه محبةً جمة كما ظهر ذلك من رسائلها إليه.

وقد ثبت من المحاكمة أن المقتول كتب في يوم واحد ثلاث رسائل. الأولى لعمه يطلب بها منه القبول بزواجه بابنة السفير. والثانية لعمه أيضًا يقول له فيها: ستصلك منِّي في هذا البريد رسالة أطلب بها منك الرخصة بالتزوج بابنة السفير وألحُّ عليك بالقبول فلا تحفل بها أبدًا بل ارمها في سلة المهملات؛ إذ قد أرغمت على كتابتها. أما أنا فلا أريد أن أتزوج بابنة السفير مطلقًا لأسباب لا يمكنني الآن التصريح بها وسأقصها عليك شفويًّا. أما الرسالة الثالثة فقد أرسلها إلى خطيبته يقول لها فيها: لقد كتبت اليوم إلى عمي كتابًا ألح عليه بالقبول، ولا شك أن الجواب سيكون بالقبول وعندئذ يتم هناؤنا ونتحد معًا بشريعة الزواج المقدسة ولا يفصل بيننا بعدئذ سوى الموت.

وظهر أنه طرح المكاتيب الثلاثة بإدارة البريد في وقت واحد؛ إذ حين حدوث القتل ضبطت الحكومة تلك الرسائل فظهرت منها الحقيقة بكل جلاء.

ويوجد برهان آخر على خداعه وهو: لقد سأل خطيبته أن تحرق جميع رسائله التي أرسلها إليها وأنه هو سيفعل ذلك. فلبَّت الشابة سؤله بينا هو ظل محافظًا على جميع رسائلها.

ولا ندري السبب الذي لأجله أجاز المحامي عن القتيل لنفسه قراءة رسائل الشابة الغرامية علنًا وكلها تنمُّ عن حبٍّ مفرط وهيام لا حد له، وقد تكدرت كدرًا شديدًا لدن سماعي بعضها، فخرجت من المحكمة وذهبت إلى منزلي ولم أكد أبلغه حتى أخبرني أحد أصدقائي أن حاضري المحاكمة، وعددهم وافرٌ، هجموا على محامي القتيل ثائرين يريدون تمزيقه إربًا إربًا لقراءته تحارير الخطيبة علنًا، ولو لم تتدخل الشرطة بالأمر لقضي على المحامي. فشكرت الله على خروجي وإلا لَسَرَت إليَّ عدوى الهجوم ولهجمت مع الهاجمين. وطال أمد المحاكمة عشرة أيام. وكنت قد سمعت مشاهير الخطباء السياسيين والمحامين في أوروبا، إلا أنني لم أسمع قط أحدًا منهم تكلم ببلاغة وإقناع نظير البلاغة التي كان يتكلم بها المسيو «جنسون» المدافع عن القاتل.

ولا يسعني في هذا المقام سرد جميع الوقائع خوفًا من التطويل الممل وأكتفي بذكر خلاصة ختام المحاكمة فأقول:

عندما دخل المحلفون إلى غرفة المفاوضة للتصويت إذا كان القاتل مذنبًا أم لا، ولما كانت تلك الساعة رهيبة جدًّا إذ يتوقف عليها حياة ذلك الشاب، ذهبت حالًا إلى حيث كان صديقي السفير جالسًا فوجدته بحالة يرثى لها من الحزن والوجل، وقد تلعثم لسانه من فرط التأثر والمحامي يهدئ روعه دون جدوى. وبينا نحن على تلك الحال قُرِع الجرس المشير إلى انتهاء المحلفين من المشاورة ودخولهم قاعة المحاكمة فأسرعت مع المحامي. وفي تلك

الدقيقة فُتح الباب الذي يقابلنا وخرج منه المحلفون وشاهدت الرئيس يشير إلى المحامي بحاجبيه إشارةَ التبرئة. فقال لي المحامي: أسرع وبشِّر السفير بذلك. فهرولت وبشرته، فلم يكد يصدق من عظم الفرح، ثم عدت إلى قاعة المحاكمة فسمعت رئيس المحلفين يقول:

جوابًا على السؤال إذا كان كارلوس وادنكتون متعمدًا القتل، أقول كان الجواب بالسلب بسبعة أصوات ضد خمسة. فصفق الحاضرون كثيرًا ابتهاجًا وسرورًا لأن الشاب المسكين أُنقِذ بأكثرية صوت واحد.

وقد هجمت ابنة رئيس المحلفين على والدها تقبله ودموع الفرح تنهمر من مآقيها قائلة له: «مرسيه بابا ... مرسيه بابا.» أي شكرًا لك يا والدي. لأن قسمًا عظيمًا من العائلات كان متأثرًا أي تأثر كيف أن القانون لا يعاقب الشاب المحتال على خطيبته نيلًا لإربه متذرعًا بالخطبة.

إنني إلى الآن لم أدرك سبب تسفل ذلك اللئيم وما القصد من عمله الدنيء؛ إذ بعد أن خدع تلك الشابة متظاهرًا بحبها والعزم على تزوجها، يريد فضيحتها والتشهير بها علنًا. ترى هل ذلك لقاء حبها الجم إياه وثقتها العمياء به؟

إن القتل إذا كان يجوز في أمر ما، فقد نال القتيل عدلًا ما استحق لقاء دناءته وخداعه.

الفـــــهــــــرس

كلمة تمهيدية
قطع العلائق السياسية بين فرنسا والدولة العثمانية
رفض ليوبولد الثاني ملك البلجيك قبول سفير عثماني
اختلافي مع السفير
خطة سياسية حربية بين اليابان والدولة العثمانية لسحق روسيا
قنصليتي في الأرجنتين
مأساة في السلك السياسي